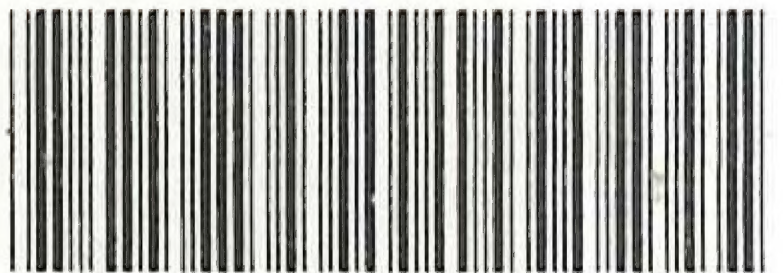


رواية «ديفيد كويرفيلد» عمل قصصي متكامل: فالشخصيات تمتاز بالواقعية والحيوية، والأحداث تكتنفها الأسرار والمغامرات، والسرْد مُمتع يجعل القارئ يشعر أنه في قلب ما يجري. أمّا الأبعاد الإنسانية سامية تُشيد سعادة الفرد وسلامة أخلاقه وتدعو إلى صلاح المجتمع وتخليصه من المساويء والشوائب.

هذه الصفات التي تجلّت في كل أعمال تشارلز ديكنز جعلته أحد أعلام الفن القصصي في الأدب الإنكليزي.



ديفيد كويرفيلد



كتب الفراشة - القصص العالمية

ديفيد كوبرفيلد



تأليف: تشارلز ديكنز
ترجمة: زينه دياب
مراجعة: هاني تاري



مكتبة لبنان ناشرون



مقدمة

كَبَّ تشارلز ديكنز عن روايته «ديفيد كورفيلد» أنها الأحبُّ إليه من بين مؤلفاته كلها. والواقع أنَّ هذه الرواية تحمِلُ أصداءً من حياته الشخصية. فقد عانى ديفيد كورفيلد، على غرار ديكنز، من مشقات كثيرة ناجمة عن فقر أسرته، كما أُرْسِلَ في العاشرة للعمل في مصنع قاتمٍ تُعششُ فيه الأمراضُ. بيدَ أنه تمكنَ من الإفلاتِ من هذا الجوِّ التعسِّرِ فحصلَ على شيءٍ من العلمِ أهله لممارسة مهنة الصحافة كديكنز نفسه. وفي نهاية المطافِ توصلَ إلى الشهرة والثروة بصفته كاتباً روائياً كبيراً مثلَ مُبدعه. ومع كلِّ هذا، فالرواية ليست سيرة ذاتية لـديكنز إنما هي عملٌ قصصيٌّ متكاملٌ.

يذهب ديفيد برفقة مربيه يوغوي إلى مدينة يارموث الساحلية، ويمضي أجملَ عطلة في أيام طفولته. وهذا المكان يختلفُ تماماً عن المدرسة الداخلية الموحشة التي أُرْسِلَ إليها ومديرها الظالم السيد كريكل، وعن أزقة منطقة بلاكفرايرز في لندن التي تغزوها الجُرذانُ والتي عملَ فيها ديفيد بعد تركه المدرسة، مُقابل ستة شلنات في الأسبوع. لكنَّ الأمورَ أخذتْ بالتَّحسُّنِ فيما بعدُ، إذ رَحَلَ ديفيد إلى دوهر وتعهَّدته عمته المسنة الغريبة الأطوار بَنَسِي. كان لبَنَسِي تأثيرٌ عميقٌ في حياته، فساعدته على تحسُّنِ وضعه حتى وصلَ بعمله الدُّوبِ وتفاؤله إلى بناء الحياة السعيدة التي يستحقُّها.

وتتحدثُ مع قصَّة هذا الشابِّ الذي يختبرُ أمورَ الحياةِ قصصُ عددٍ كبيرٍ من الشخصياتِ التي وصفها ديكنز بحيويةٍ فائقة: في المدرسة وجدَّ ديفيد في ترادُّز البدنِ الصداقة التي تدومُ مدى الحياة، فهو من الأشخاص الذين يُعتمدُ عليهم. وفي المدرسة

مكتبة لبنان ناشرون

زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢ - ١١

بيروت - لبنان

وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

© الحقوق الكاملة محفوظة

لمكتبة لبنان ناشرون

الطبعة الأولى ١٩٩٥

رقم الكتاب 01 C 196821

طُبِعَ في لبنان

ديفيد كويرفيلد

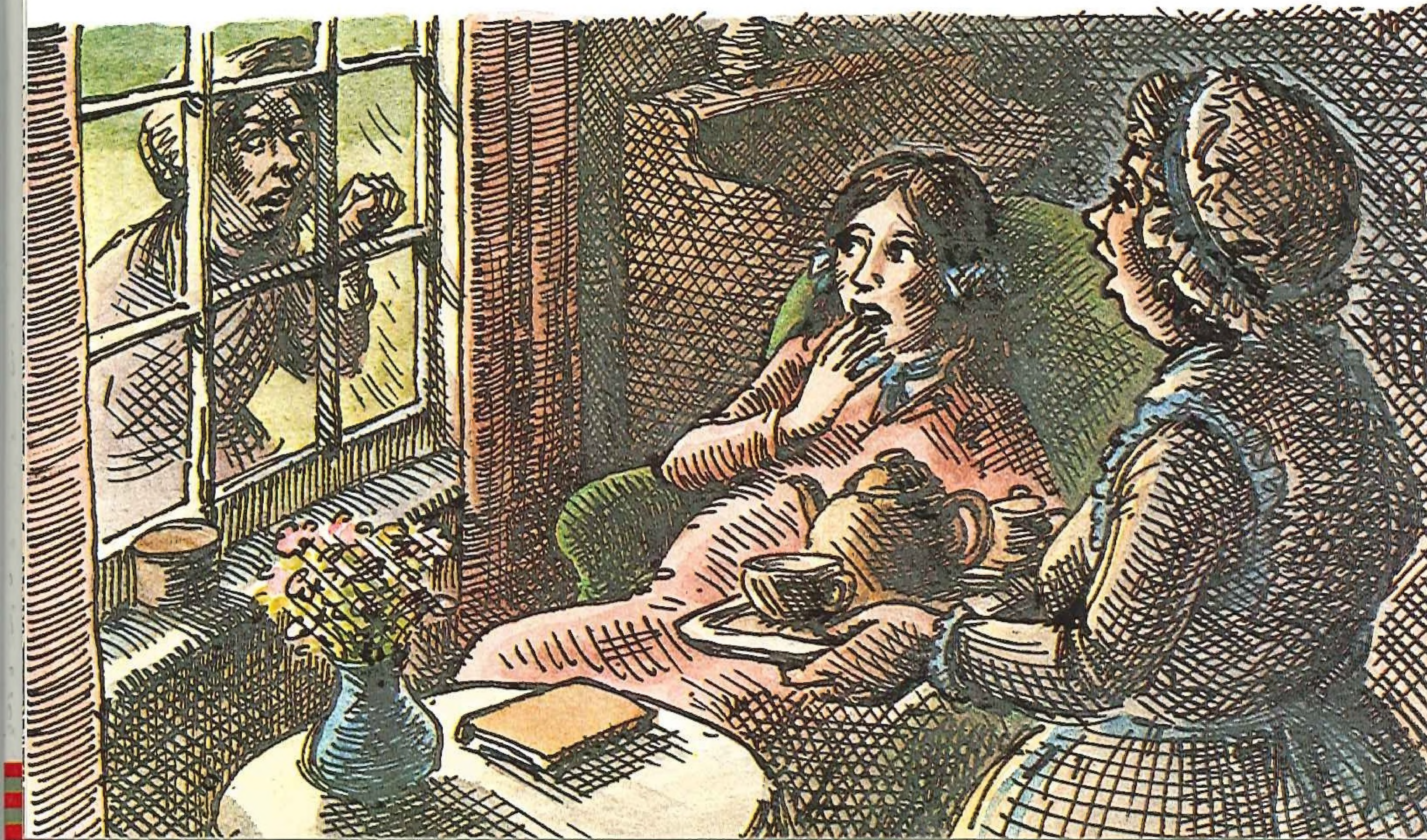
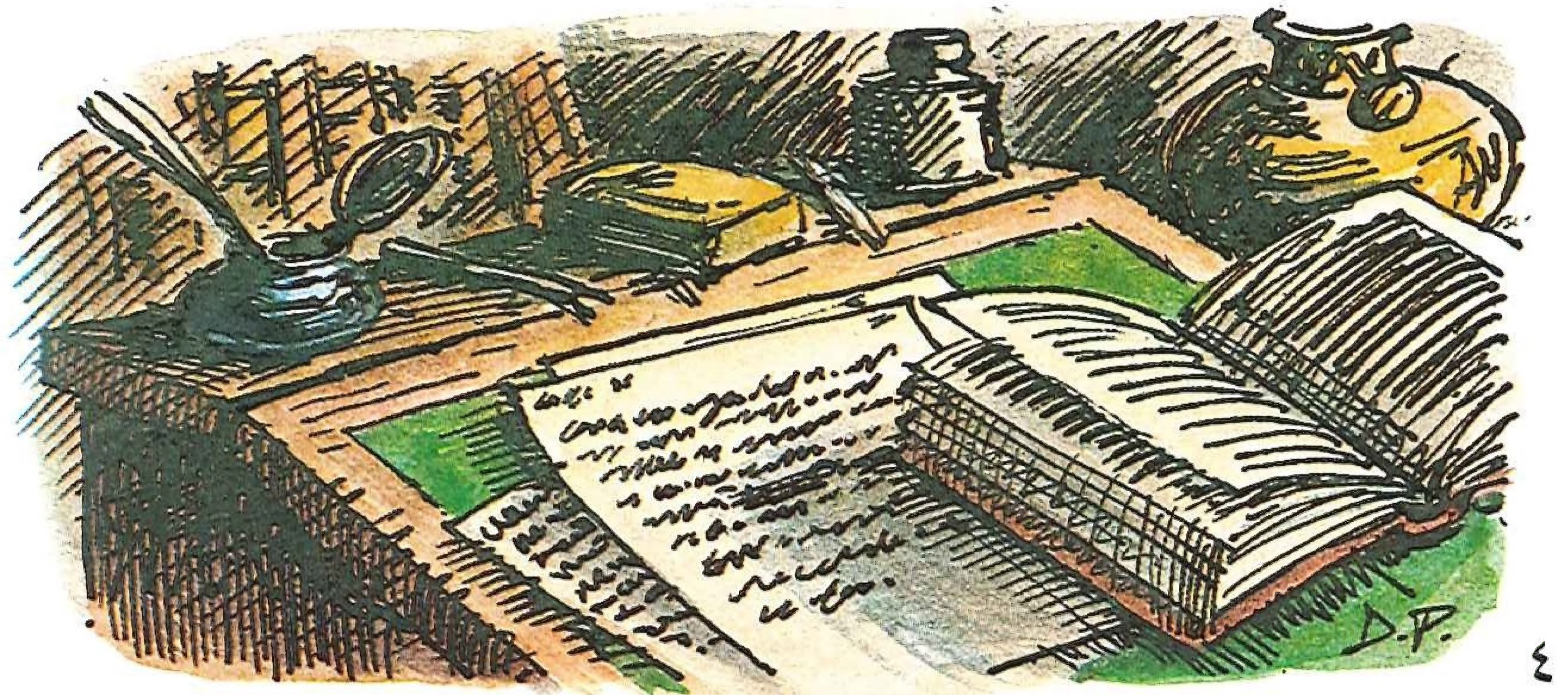
اسمى ديفيد كويرفيلد، وقد وُلدت في مقاطعة سَفوك في جنوبي شرقي إنكلترا، في مطلع القرن التاسع عشر. تَرَمَّلت والدتي قبل ولادتي بستة أشهر، وكانت في عزِّ صباها وجمالها، ولم يبقَ بجانبها سوى خادمتها الوفية بيغوتي.

يوم ولادتي فوجئت أمي بزيارة عمَّة زوجها المرحوم، الأنيسة بيسي. وكانت قد سمعت عنها، غير أنها لم تلتق بها من قبل. كانت بيسي امرأة غريبة الأطوار. فعوضاً عن قرع الباب، ألصقت أنفها بزجاج النافذة إلى أن ابيضَّ وانبسط، ثم دخلت من دون استئذان. كانت بيسي تعلم أن أمي على وشك الولادة، وأعربت عن اقتناعها بأن أمي سترزق طفلة. فقالت لها أمي إن المولود قد يكون صبيًا، مما أثار غضبها. عندما أعلن الطبيب أن والدتي قد أنجبت طفلاً لم تنسب بيسي بنت شقة، بل انتشلت قُبعتها ورحلت من غير عودة. ولم تكن أمي لتعلم أن بيسي هذه كانت ستلعب دورًا أساسيًا في حياتي.

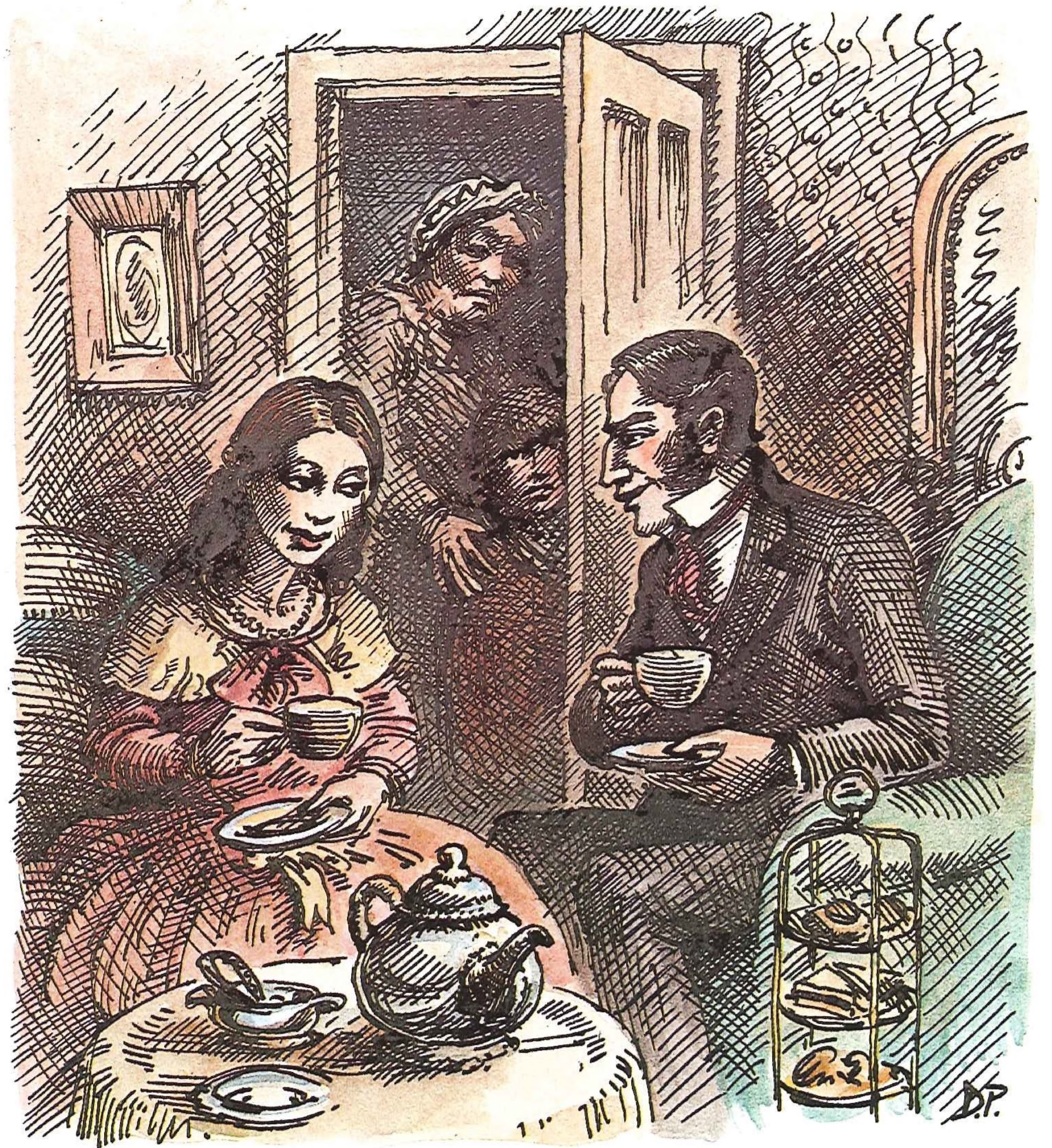
أيضاً أُتيحَ له التعرفُ إلى «معبود الجميع» المدعو ستيرفورت الذي يكبره سنًا. ولكن سرعان ما صارت صداقة ستيرفورت مصدرَ خطر، فهذا الأخير كاد يسبب لـديفيد الكوارث بتصرفاته الأنانية الطائشة. وفي الرواية أيضًا تصويرٌ لعذاب الحب في قلب ديفيد حيث كان الصراع قائمًا بين حنينه الرومنسيِّ لحبه الأول لامي، والحب الحقيقي الذي كان يكتنه لدورا الطائشة الفوضوية المزاج، والحب المكتمل الذي أوحته إليه أغيس ملاكه الحنون، إلا أنه حب ساكن وخجول.

ومن الشخصيات اللافتة في الرواية السيد ميكور الذي التقى به ديفيد لأول مرة وهو في العاشرة، وظهر مرارًا فيما بعد، وأوربًا هيب الشرير الذي يعمل كاتبًا عند صديق ديفيد ومُرشده السيد وكفيلد. والرجلان متناقضان تمامًا فما لبثا أن تواجها في صراع مرير، وتوقف على هذا الصراع مستقبل عدد كبير من الشخصيات الأخرى، ومن بينها ديفيد بالذات. فالسيد ميكور يفيض بالحيوية وجدير بالثقة مع أنه يبدو بعض الأحيان طائشًا وعديم المسؤولية. أما أوربًا هيب فهو بالمقابل رجلٌ خسيسٌ مولعٌ بتدبير المكائد ولا يبالي إلا بمنفعته الذاتية. وفي سياق الرواية يسعى هيب إلى تدمير السيد وكفيلد، وهذا ما يحمل الآخرين جميعًا على مجابهته للحيلولة دون وصوله إلى هدفه.

وتمتاز «ديفيد كويرفيلد» بكلِّ صفات الرواية العظيمة، من مغامرات وكوارث وأسرار وعلاقات رومنسية. إلا أن الصفة التي خلّدت ديكرت تكمن في قدرته على إقناع القارئ بواقعية شخصياته وجعله يشعر وكأنه يعيش الأحداث المروية.



أَذْكُرُ أَوَّلَ مَا أَذْكُرُ - مِنْ أَيَّامِ طُفُولَتِي - خَادِمَتَنَا وَمُرَبِّتِي الرَّيَّانَةَ ، يِغْوِي ، ذاتَ
الْوَجْتَيْنِ الْوَرْدَيْنَيْنِ . وَكُنَّا نَعْتَبِرُهَا كَفَرْدٍ مِنْ أَفْرَادِ الْعَائِلَةِ ، وَقَدْ أَحْبَبْتُهَا بِقَدْرِ مَا أَحْبَبْتُ
وَالِدَتِي بِالذَّاتِ .



ذاتَ يَوْمٍ وَصَلَتْ أُمِّي إِلَى الْبَيْتِ بِرِفْقَةٍ سَيِّدٍ حَالِكٍ الْوَجْهِ ، مُلْفِتٍ لِلنَّظَرِ . كَرِهْتُهُ
كُرْهًا عَفْوِيًّا وَحَدْسِيًّا . وَبَدَأَ لِي أَنَّ يِغْوِي حَمَلَتْ نَحْوَهُ الشُّعُورَ نَفْسَهُ . فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ ،
بَعْدَ أَنْ رَحَلَ الرَّجُلُ الدَّخِيلُ ، وَفِيمَا كُنْتُ جَالِسًا قُرْبَ الْمَوْقِدِ وَقَدْ غَلَبَنِي النُّعَاسُ ، أَتَقْظَنِي
حَدِيثٌ حَادٌّ يَجْرِي بَيْنَ أُمِّي وَيِغْوِي .

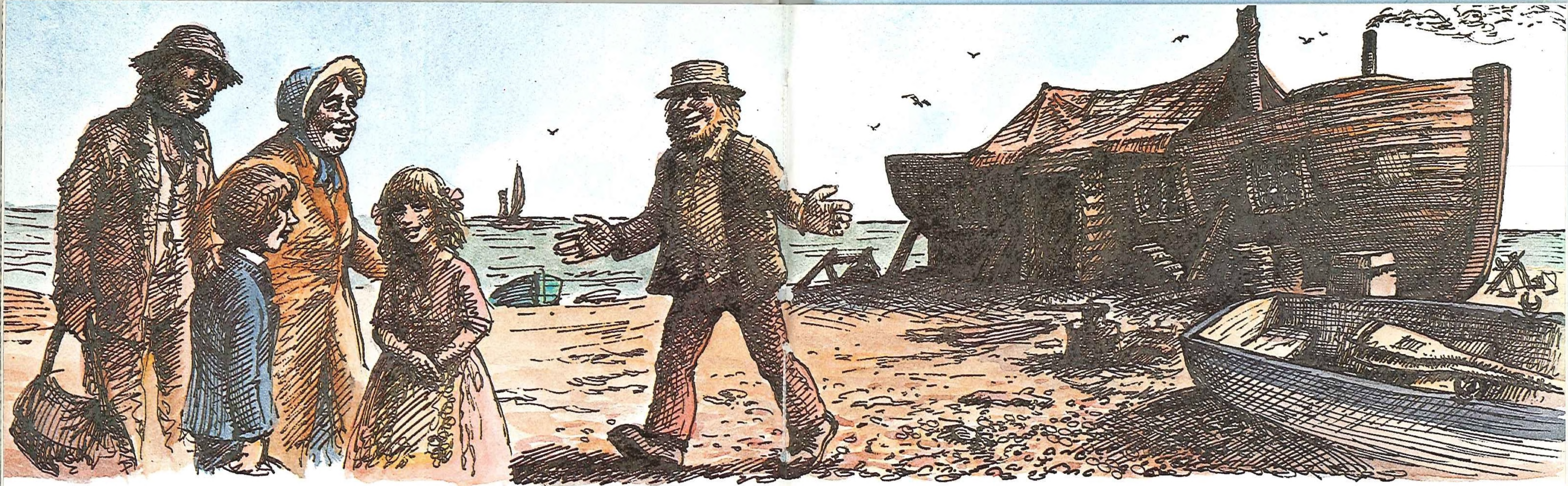
سَمِعْتُ يِغْوِي تَقُولُ : « إِنَّ السَّيِّدَ كُوْرِفِيلْدَ لَمْ يَكُنْ لِيُحِبَّ رَجُلًا كَهَذَا . » فَأَجَابَتْ
أُمِّي مُسْتَأْذَةً : « كَيْفَ تَجْرُئِينَ عَلَى أَنْ تَتَفَوَّهِي بِهَذَا الْكَلَامِ يَا يِغْوِي ! إِنَّا لَمْ نَتَّفِقْ عَلَى
شَيْءٍ بَعْدُ ، لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَمْنَعَ سَيِّدًا مُحْتَرَمًا مِنْ أَنْ يُعْجَبَ بِي . » وَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ ،
وَأَرْدَفَتْ : « أَنْتِ تَتَهَمِينِي بِعَدَمِ الْكَثْرَةِ بَوْلَدِي الْحَبِيبِ . وَتَقْسِينَ عَلَيَّ ، يَا يِغْوِي . »
إِثْرَ ذَلِكَ سَأَلَتْ دُمُوعُنَا جَمِيعًا . فَصَعِدَتْ بِي أُمِّي إِلَى السَّرِيرِ وَأَنَا أَبْكِي . وَغَفَوْتُ
وَالْحُزْنَ يَغْمُرُنِي لِأَسْتَقِظَ وَارَى أُمِّي مُنْحَنِيَةً عَلَيَّ دَامِعَةً الْعَيْنَيْنِ .

خِلَالَ الْأَشْهُرِ التَّالِيَةِ اعْتَدْتُ مُشَاهَدَةَ الرَّجُلِ الْحَالِكِ الْوَجْهِ آتِيًا لِرِيزَارَةِ أُمِّي أَوْ
لِمُرَافَقَتِهَا خَارِجًا . كَانَ يُدْعَى السَّيِّدَ مُرْدُسْتُونَ . وَقَدْ نَفَرْتُ مِنْ صِرَامَتِهِ الْبَغِيضَةِ وَافْتِقَارِهِ إِلَى
رُوحِ الدُّعَابَةِ .

سَأَلْتَنِي يِغْوِي ذاتَ يَوْمٍ إِنْ كُنْتُ أَرْغَبُ فِي مُرَافَقَتِهَا إِلَى يَارْمُوثَ لِقَضَاءِ حَوَالِي
أُسْبُوعَيْنِ فِي مَنْزِلِ أَخِيهَا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ . وَأَضَافَتْ : « إِنَّ أَخِي رَجُلٌ فِي مُتَهَيِّ اللُّطْفِ ،
فَضْلًا عَنْ أَنَّكَ سَتَمَلَأُ عَيْنَيْكَ مِنَ الْبَحْرِ وَالسُّفُنِ وَالْبَوَاحِرِ وَصَيَّادِي الْأَسْمَاكِ . وَلَا تَنْسَ
مُتَعَةَ اللَّعِبِ عَلَى الشَّاطِئِ مَعَ الْفَتَى هَامَ وَالصَّغِيرَةِ إِمِيلِي . »

وَقَدْ تَحَمَّسْتُ لِعُطْلَةٍ مِنْ هَذَا النَّوعِ لِكَيْ تَسَاءَلْتُ كَيْفَ سَتَرُكُ أُمِّي وَحْدَهَا . فَهَتَفَتْ
يِغْوِي : « لَا عَلَيْكَ ! لَنْ تَشْعُرَ أُمُّكَ بِالْوَحْدَةِ . فَهِيَ سَتَذْهَبُ عِنْدَ السَّيِّدَةِ غُرَايِرَ . »

بَعْدَ بَضْعَةِ أَيَّامٍ عَانَقْتَنِي أُمِّي بِشِدَّةٍ وَهِيَ تُودِّعُنِي وَبَكَيْنَا وَنَحْنُ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ ، ثُمَّ
جَلَسْتُ فِي مَكَانِي قُرْبَ يِغْوِي فِي عَرَبَةِ النُّقْلِ . وَحِينَمَا انْطَلَقَتِ الْعَرَبَةُ لَمَحَتْ السَّيِّدَ
مُرْدُسْتُونَ يَصِلُ وَيَتَّجِهُ نَحْوَ أُمِّي وَكَأَنَّهُ يُرِيدُ تَوْبِيخَهَا عَلَى بُكَائِهَا عِنْدَ وَدَاعِي .



وَصَلْنَا إِلَى يَارْمُوثَ فِي وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنَ الْمَسَاءِ. وَبَدَأَ لِي الْمَكَانُ بِأَسْرِهِ مُشْبَعًا بِالرُّطُوبَةِ وَكَأَنَّهُ مُنْبَسِطٌ مَائِيٌّ كَبِيرٌ، فَالْبَحْرُ وَالنَّهْرُ وَالْمَدِينَةُ عَلَى مُسْتَوًى وَاحِدٍ. وَعِنْدَمَا تَوَقَّفْتُ الْعَرَبَةُ أَمَامَ الْخَانِ، جَاءَ هَامُ ابْنُ عَمِّ بِيغُوِي لِلْقَائِنَا، وَكَانَ شَابًّا فَارِعَ الطُّولِ. رَحَّبَ بِيغُوِي تَرْحِيًّا حَارًّا، وَحَمَلَنِي عَلَى ظَهْرِهِ الْعَرِيضِ وَتَابَّطَ الرِّزْمَ الصَّغِيرَةَ الَّتِي احْتَوَتْ أَمْتِعَتَنَا. قَالَتْ لِي بِيغُوِي إِنَّهُ يَتِيمٌ، فَلَقَدْ مَاتَ أَبُوهُ غَرَقًا فِي الْبَحْرِ.

مَرَرْنَا بِمَصَانِعِ إِنتَاجِ الْغَازِ وَأَحْوَاضِ بِنَاءِ السُّفُنِ وَمَصَاهِرِ الْحَدِيدِ إِلَى أَنْ بَلَّغْنَا أَرْضًا رَمَلِيَّةً مُسَطَّحَةً تُؤَدِّي إِلَى الشَّاطِئِ. فَهَتَفَ هَامُ: «هَا هُوَ بَيْتُنَا يَا سَيِّدُ دِيْقِي!»

نَظَرْتُ إِلَى شَتَّى الْجِهَاتِ فَلَمْ أَرِ أَثَرًا لِبَيْتٍ، وَلَكِنْ رَأَيْتُ زَوْرَقًا قَاتِمَ اللَّوْنِ، لَا بُدَّ أَنَّهُ مَا بَقِيَ مِنْ مَرْكَبٍ قَدِيمٍ، وَقَدْ رَسَا عَلَى رِمَالِ الشَّاطِئِ. كَانَ لَهُ بَابٌ وَشَبَابِيكُ صَغِيرَةٌ فِي أَعْلَاهُ مَا يُشَبِّهُ أَنْبُوبَ مَدْخَنَةٍ يَتَصَاعَدُ مِنْهَا الدُّخَانُ. فَسَأَلْتُ هَامَ: «هَلْ هَذَا بَيْتُكَ؟ أَعْنِي هَذَا الشَّيْءَ الَّذِي يُشَبِّهُ الْمَرْكَبَ؟» فَاجَابَنِي: «أَجَلْ يَا سَيِّدُ دِيْقِي.»

بَدَأَ لِي الْمَنْزِلُ، مِنَ الدَّخِيلِ، مُرْتَبًا وَنَظِيفًا. وَدَلَّتْنِي بِيغُوِي بِفَخْرٍ عَلَى غُرْفَةِ النَّوْمِ

الْمُعَدَّة لِي فِي مُوَحَّرَةِ الْمَرْكَبِ. كَانَ بَيَاضُ الْجُدْرَانِ يُحَاكِي بَيَاضَ اللَّبَنِ. وَفِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْغُرْفَةِ رَأَيْتُ سَرِيرِي الصَّغِيرَ بِغِطَائِهِ الْمُتَعَدِّدِ الْأَلْوَانِ.

ثُمَّ التَّقَيْتُ بِالسَّيِّدِ بِيغُوِي، شَقِيقِ مُرَبِّيَتِي الْعَزِيزَةِ. وَمَا حَلَمْتُ قَطُّ بِأَنْ أَلْتَقِيَ يَوْمًا بِرَجُلٍ يُضَاهِيهِ كَرَمًا وَنُبْلًا. وَقَدْ اصْطَحَبَ مَعَهُ ابْنَتَهُ الْأُخْتِ الرَّائِعَةَ إِمِيلِي، وَهِيَ طِفْلَةٌ يَتِيمَةٌ. رَأَيْتُ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ يُكُونُونَ مَعًا عَائِلَةً سَعِيدَةً وَشَرِيفَةً وَقَدْ سُرَّرْتُ جَدًّا بِالتَّعَرُّفِ إِلَيْهِمْ. وَكَانَتْ تَفُوحُ مِنْ بَيْتِهِمْ رَائِحَةُ الْبَحْرِ لِأَنَّ السَّيِّدَ بِيغُوِي وَهَامَ كَرَّسَا حَيَاتَهُمَا لِلصَّيْدِ.

مَرَّ الْأُسْبُوعَانِ بِسُرْعَةٍ، وَشَارَفَتِ الْعُطْلَةُ عَلَى نِهَائِهَا، فَكَانَ عَلَيَّ أَنْ أُودِّعَ أَصْدِقَائِي الطَّيِّبِينَ. وَأَكْثَرُ مَا كَانَ يُؤْلِمُنِي هُوَ الْإِتِّعَادُ عَنْ عَزِيزَتِي إِمِيلِي الصَّغِيرَةِ، لِأَنَّا لَمْ نَفْتَرِقْ طَوَالَ الْعُطْلَةِ. قُلْتُ وَعَيْنَايَ دَامِعَتَانِ: «وَدَاعًا يَا إِمِيلِي. إِنِّي ذَاهِبٌ رُغْمًا عَنِّي.»

- الْوَدَاعُ يَا دِيْقِي! سَأَشْتَاقُ إِلَيْكَ كَثِيرًا.

- أَنَا أَيْضًا سَأَشْتَاقُ إِلَيْكَ، لَكِنِّي سَأُرَاسِلُكَ.

وَحَمَلْتَنِي الْعَرَبَةُ بَعِيدًا عَنْ أَصْدِقَائِي الْأَعْزَاءِ. فَاسْتَسَلَمْتُ لِلْحُزْنِ.

فيما كنا نقترب من بيتنا قالت لي بيغوتي مُرتبكة: «عليَّ أن أخبرك بما حصل في غيابنا يا ديفي. لقد تزوجت والدتك السيد مُرستون.»

صدمني هذا الخبر إلى أقصى حد. ولم أر أحداً في البيت، فأسرعتُ تَوّاً إلى عُرفتي حيثُ بكيتُ بكاءً مريراً، إلى أن غلبني النعاسُ. بعد ساعاتٍ، استيقظتُ لأرى والدتي وبيغوتي بجانب سريري. قالتُ أمي وهي تعانقني: «ديفي، يا بُني، لِمَ هذا البكاء؟ عليك أن تفرح من أجلي.» في تلك اللحظة دخلَ الغرفة السيد مُرستون، ولم يُحاول أن يُخفي سُخطه لرؤيته أمي تُشاركني حزني. وكلُّ ما قاله لها هو: «لا تدلّي الصبي، بل حافظي على صرامتك!»

وفي وقتٍ لاحقٍ التقيتُ بشقيقة السيد مُرستون التي كرهتني من أولِ نظرة. وقد تولّت إدارة منزلنا، وعاملتُ أمي مُعاملتها لِطفلة عاجزة عن القيام بأيِّ عملٍ نافع. تازم الوضع، ذات يومٍ، عندما لجأ السيد مُرستون إلى ضربني بعصاه من غيرِ رَحمةٍ لأنني لم أحفظ دروسي على أكمل وجه. فحاولتُ أن أقاومه، وانتهى بي الأمرُ إلى عضه بيده. ونتيجةً لذلك حُجزني في عُرفتي مُدة خمسة أيامٍ أُخرجتُ بعدها لِأرسلَ رأساً إلى مدرسةٍ داخلية. وبالرغمِ ممّا انطوى عليه ذلك من بُعدٍ عن والدتي وبيغوتي العزيزة فقد شعرتُ بالفرح لِلابتعاد عن زوجِ أمي القاسي وشقيقته المُزعجة.

وقفتُ العربة، في الصباح، أمامَ المنزل لِتُقِلني وأمتعتني إلى المحطة. وكان سائقُ العربة رجلاً غامضاً ساكناً يُدعى باركيس. وقد ظهرَ لي أنّه كان يُبدي بعضَ الاهتمامِ ببيغوتي. وفيما راح الحصانُ يعدو بالعربة على الطريق أخذَ باركيس يطرحُ الأسئلة حولَ بيغوتي. ولاحظتُ أنّه كتبَ اسمها بالطباشير داخلَ عربته.

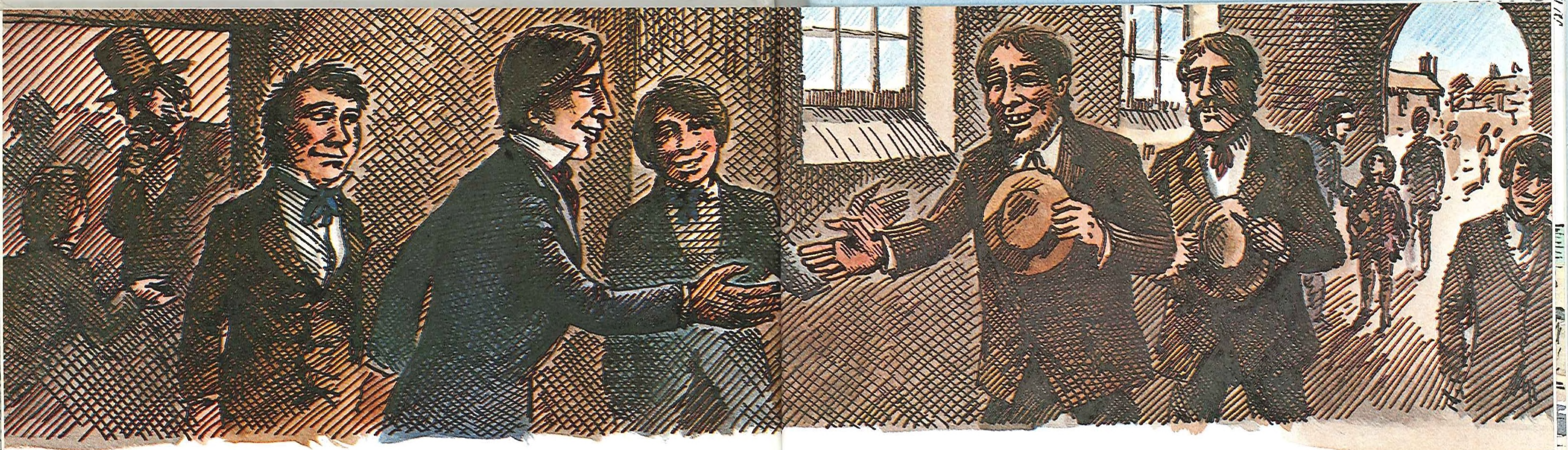
قال: «أظنُّ أنّك ستُراسلُها.»

وأجبتُ: «أجل. بالطبع.»

فقالَ باركيس بشيءٍ من الغموض: «إذا قلَّ لها إنَّ باركيس راغبٌ حقاً.»

وكررَ رسالته عدّة مرّاتٍ طالباً مني، بِالْحاحِ، أنْ أنقلها إلى بيغوتي. وبعدَ أيامٍ، وفيتُ بوعدِي، فبلغتُ بيغوتي رسالته عندما كتبتُ إليها.

كانتُ «سالم هاوس» مدرسةً داخليةً صغيرةً في إحدى ضواحي لندن، يملكها السيدُ كريكل، ولم أر في حياتي مكاناً مُوحشاً وكثيباً وبغيضاً كذلك المكان. وسرعانَ ما تبينَ لي أنّ تلاميذَ تلك المدرسة كانوا يُعاملون مُعاملةً البهائم لا البشر، فالسيدُ كريكل، مُديرُ المدرسة، رجلٌ قاسٍ غيرُ مُتقفٍ، يجدُ متعةً في ضربِ كُلِّ مَنْ تطأه عَصاه.



لَمْ يُسَاعِدْنِي عَلَى تَحْمُلِ الْعِشْرِ فِي تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ سِوَى صَدَاقَةِ صَبِيَّيْنِ أَحَدُهُمَا تَرَادُلُزْ .
وَكَانَ فِي مِثْلِ سِنِّي ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا صَدِيقَيْنِ مُتَلَاذِمَيْنِ دَائِمًا . وَإِنِّي أَسْتَطِيعُ الْآنَ أَنْ أُحْيِيَ
صُورَتَهُ فِي ذَاكِرَتِي فَأَرَى فَتًى مَرِحًا يَلْبَسُ ضِيقَ تَبْدُو فِيهِ سَاقَاهُ وَذِرَاعَاهُ أَشْبَهَ بِكَعْكَتَيْنِ
مَلْفُوقَتَيْنِ . وَغَالِبًا مَا كَانَتْ عَصَا السَّيِّدِ كَرِيكَلٍ تَسْتَهْدِفُهُ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعِيدُ مَرَحَهُ
بِسُرْعَةٍ . أَمَّا صَدِيقِي الْآخَرُ ، فَزَعِيمُ الْمَدْرَسَةِ وَمَعْبُودُ الْجَمِيعِ سَتِيرْفُورْتْ . وَكَانَ هَذَا لَا مِغَا
فِي دُرُوسِهِ ، وَسِيمًا يَلْفِتُ النَّظَرَ بِحُسْنِ طَلْعَتِهِ وَيَتَحَلَّى بِجَاذِبِيَّةٍ طَبِيعِيَّةٍ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ
كَانَ يَكْبُرُنِي بِسِتَّةِ أَعْوَامٍ فَلَقَدْ صَادَقَنِي وَتَوَلَّى حِمَايَتِي مِنْ كُلِّ مَا يَتَعَرَّضُ لَهُ تَلَامِيذُ
الْمَدَارِسِ الدَّاخِلِيَّةِ . لِذَلِكَ كُنْتُ شَدِيدَ الْاعْتِرَازِ بِصَدَاقَتِهِ .

ذَاتَ يَوْمٍ فَاجَأَنِي الْإِعْلَانُ عَنْ وُصُولِ زَائِرَيْنِ لِرُؤُوسِي . وَسُرِرْتُ كَثِيرًا عِنْدَمَا رَأَيْتُ
أَنَّهُمَا السَّيِّدُ بِيغُوتِي وَهَام . وَانْتَهَزْتُ الْفُرْصَةَ لِأَقْدِمَ سَتِيرْفُورْتْ إِلَى صَدِيقَيَّ الْعَزِيزَيْنِ . وَبَدَا
سَتِيرْفُورْتْ كَعَادَتِهِ مَرِحًا طَلَّقَ الْمُحَيَّا وَوُدِّيًّا . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ بَالِغِ سُرُورِهِ بِالتَّعَرُّفِ إِلَى
الصَّدِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ طَالَمَا حَدَّثْتُهُ عَنْهُمَا . وَأَعْجَبَ السَّيِّدُ بِيغُوتِي وَهَام بِزِمِيلِي اللَّطِيفِ .

قَالَ بِيغُوتِي : « إِنِّي تَحْتَ تَصَرُّفِكُمَا ، وَأَنَا أُرَحِّبُ بِكُمَا فِي بَيْتِنَا الصَّغِيرِ مَتَى شِئْتُمَا . »

فَكَرْتُ بِأَنَّ أَسْأَلَ السَّيِّدَ بِيغُوتِي عَنْ عَزِيزَتِي الصَّغِيرَةِ إِمِيلِي ، غَيْرَ أَنَّ الْخَجَلَ حَالَ دُونَ
ذِكْرِي اسْمَهَا أَمَامَ سَتِيرْفُورْتْ . وَكَانَ السَّيِّدُ بِيغُوتِي قَدْ أَخْبَرَنِي سَابِقًا بِأَنَّهَا لَمْ تَعُدْ طِفْلَةً بَلْ
أَصْبَحَتْ صَبِيَّةً نَاضِجَةً ، مِمَّا أَثَارَ فِيَّ بَعْضَ الْقَلْقِ .

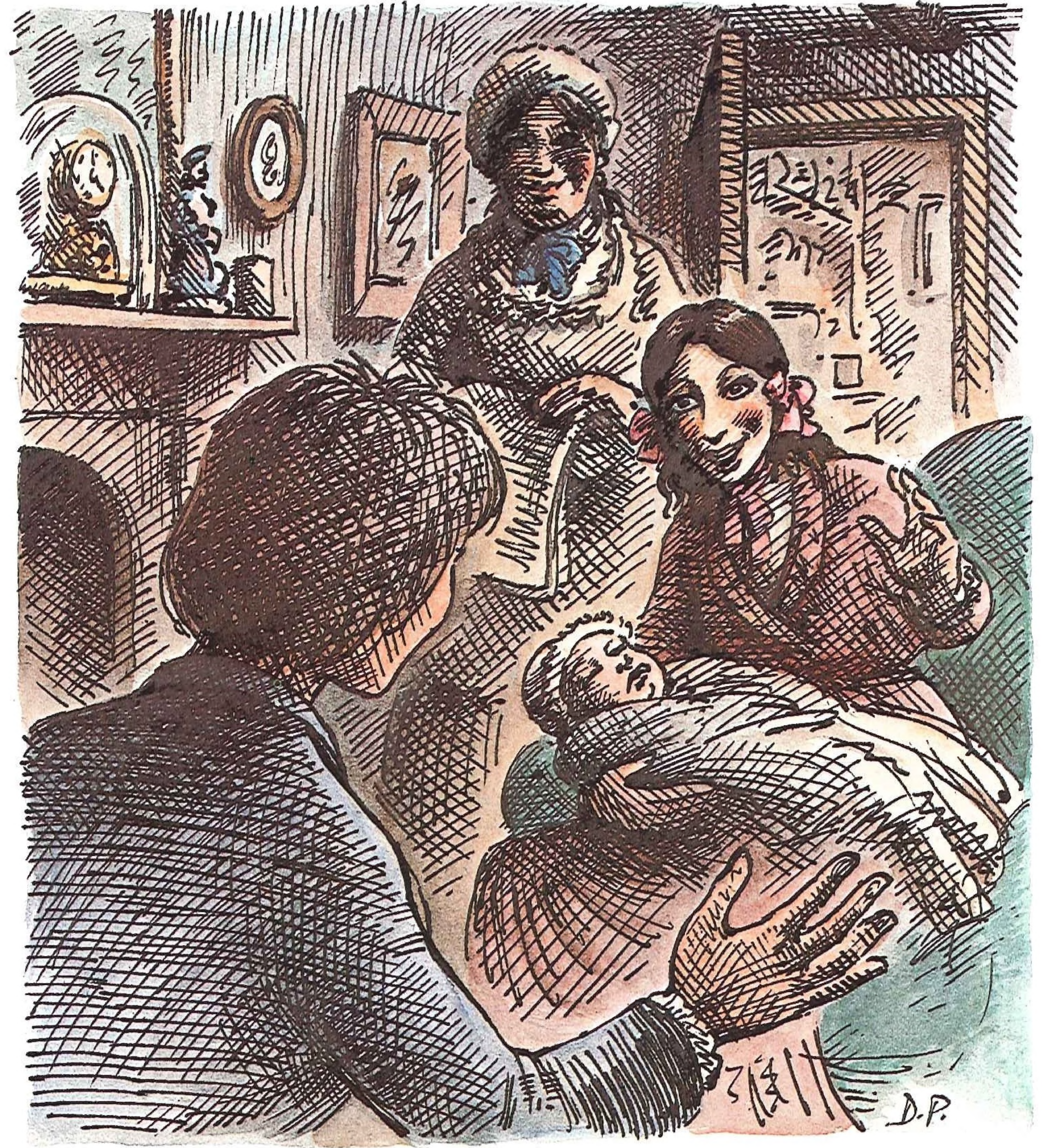
وَأَخِيرًا انْتَهَتْ السَّنَةُ الْمَدْرَسِيَّةُ وَجَاءَتْ الْعُطْلَةُ الصَّيْفِيَّةُ الَّتِي كُنْتُ أَتَرَقَّبُهَا بِقَلْقٍ ، إِذْ
كَانَتْ الْهَوَاجِسُ تَتَنَابَّئِي حَوْلَ مَدَى سَعَادَةِ أُمِّي فِي بَيْتِنَا بِوُجُودِ السَّيِّدِ مُرْدُستُونِ وَشَقِيقَتِهِ .
رَكِبْتُ عَرَبَةَ السَّيِّدِ بَارْكِيْسَ لِأَقْطَعَ الْمَسَافَةَ بَيْنَ الْمَحْطَةِ وَبَيْتِنَا . قُلْتُ لَهُ : « لَقَدْ أَلْبَغْتُ
بِيغُوتِي رِسَالَتَكَ يَا سَيِّدُ بَارْكِيْسَ عِنْدَمَا كَتَبْتُ إِلَيْهَا . »

وَبَدَتْ الْكَاتِبَةُ عَلَى مُحَيَّاهُ وَهُوَ يَقُولُ : « لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُجِدْ نَفْعًا . لَمْ تَرُدَّ عَلَيَّ . نَحْنُ
لَمْ نَتَبَادَلْ سِوَى الْقَلِيلِ مِنَ الْكَلَامِ ، حَتَّى إِنِّي لَا أَعْرِفُ اسْمَهَا الْأَوَّلَ . »

فَاجَبْتُهُ : « اسْمُهَا كَلَارَا . هَلْ تُرِيدُنِي أَنْ أَلْبَغَهَا رِسَالَةً أُخْرَى ؟ »

تَمَتَّمَ بَارْكِيْسَ مُرَدِّدًا الْاسْمَ : « كَلَارَا ، كَلَارَا . » وَرَاحَ يَكْتُبُهُ بِالطَّبَاشِيرِ أَمَامَ اسْمِ
بِيغُوتِي . ثُمَّ أَجَابَ عَنْ سُؤَالِي : « أَجَلْ . قُلْ لِبِيغُوتِي إِنَّ بَارْكِيْسَ مَا زَالَتْ رَاغِبًا حَقًّا ، وَإِنَّهُ
يَسْتَظِرُّ جَوَابًا . »

أَخَذْتُ أَرْتَعِدُ خَوْفًا وَأَنَا أَمْشِي فِي مَمَرِ الْحَدِيقَةِ نَحْوَ بَابِ الْبَيْتِ ، إِذْ تَوَقَّعْتُ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مُوَاجَهَةً مَعَ السَّيِّدِ مُرْدُستونَ أَوْ أُخْتِهِ الْبَغِيضَةِ . وَمَا إِنِ أَصْبَحْتُ دَاخِلَ الْبَيْتِ حَتَّى سَمِعْتُ أُمِّي الْحَبِيبَةَ تُدْنِدِنُ فِي غُرْفَةِ الْجُلُوسِ . وَرَأَيْتُهَا جَالِسَةً قُرْبَ الْمَوْقِدِ وَفِي ذِرَاعَيْهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ .



فُوجِئْتُ أُمِّي عِنْدَمَا تَنَبَّهْتُ لِحُضُورِي ، ثُمَّ انْتَصَبْتُ وَضَمَنْتِي إِلَى صَدْرِهَا بِقُوَّةٍ وَهِيَ تَحْمِلُ طِفْلَهَا بِيَدٍ وَاحِدَةٍ . وَرَفَعَ الطِّفْلُ الرَّقِيقُ إصْبَعَهُ الصَّغِيرَةَ إِلَى شَفَتِي لِيَلْمُسَهُمَا . قَالَتْ أُمِّي وَهِيَ تَجْهَشُ بِالْبُكَاءِ : « إِنَّهُ أَخُوكَ . آه ! وَلَدِي الْحَبِيبَ دِيفِي ... »

وَلَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَكْمِلَ كَلَامَهَا مِنْ فَرَطِ انْفِعَالِهَا . وَرَاحَتْ تُقْبِلُنِي وَتُعَانِقُنِي بِحَنَانٍ . وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ دَخَلَتْ يِيعُوقِي الْعَزِيزَةُ ، وَلَمْ تَمَّاكْ . نَفْسَهَا مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهَا بِرُؤْيَايَ . وَاتَّضَحَ لِي أَنَّ زَوْجَ أُمِّي وَالْآنِسَةَ مُرْدُستونَ لَنْ يَعُودَا إِلَّا فِي سَاعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنَ اللَّيْلِ . فَقَضَيْتُ ذَلِكَ النَّهَارَ بِرِفْقَةٍ أُمِّي وَيِيعُوقِي وَخِلَّتُهُ يَوْمًا مِنْ أَيَّامِ الْمَاضِي الْهَنِيئَةِ . وَلَمْ أُنْسَ أَنْ أُبَلِّغَ يِيعُوقِي رِسَالَةَ بَارَكِي . فَصَرَخَتْ مُعْتَاطَةً : « يَا لَهُ مِنْ رَجُلٍ ! لَنْ أَتَزَوَّجَهُ أَبَدًا حَتَّى وَلَوْ كَانَ مَجْبُولًا مِنَ الذَّهَبِ . »

طَالَ الْحَدِيثُ بَيْنَنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَتَحَدَّثْنَا وَتَحَدَّثْنَا تَمَامًا كَمَا كُنَّا نَفْعَلُ فِي الْمَاضِي . وَسَأَلْتُهُمَا عَمَّا إِذَا زَارَتْهُمَا الْعَمَّةُ بَنَسِي ، فَكَانَ الْجَوَابُ أَنَّهَا لَزِمَتْ كُوعَهَا الصَّغِيرَ قُرْبَ دُوفَرٍ . وَعِنْدَمَا اسْتَيْقَظَ الطِّفْلُ اخْتَضَّتْهُ وَرُحْتُ أُرَافِيَهُ بِعُطْفٍ وَحَنَانٍ . ثُمَّ أَخْبَرْتُهُمَا عَنْ سَتِيرْفُورْثَ وَصَدِيقِي تِرَادْلَرْ ، وَأَتَيْتُ يِيعُوقِي عَلَى ذِكْرِ الْمُعَامَلَةِ الْقَاسِيَةِ الَّتِي خَصَّتْ بِهَا الْآنِسَةُ مُرْدُستونَ وَالِدَتِي ، وَقَدْ لَاحَظْتُ انْزِعَاجَ أُمِّي لَدَى ذِكْرِ ذَلِكَ .

وَبِالطَّبَعِ أَفْسَدَ وُجُودَ السَّيِّدِ مُرْدُستونَ وَأُخْتِهِ عُطْلَتِي ، وَلِهَذَا السَّبَبِ فَرِحْتُ كَثِيرًا عِنْدَمَا حَانَ الْوَقْتُ لِلْعُودَةِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ .

مَرَّ الْفَصْلُ الْجَدِيدُ ، كَالْعَامِ السَّابِقِ ، مَلِيئًا بِأَعْمَالِ السَّيِّدِ كَرِيكَلِ الْقَاسِيَةِ وَقِصَاصَاتِهِ الْأَلِيمَةِ . غَيْرَ أَنَّ صَدِيقِي الْمُخْلِصِينَ تِرَادْلَرْ وَسَتِيرْفُورْثَ سَاعَدَانِي عَلَى التَّحْمَلِ ، إِلَى أَنْ صَدَمْتَنِي فَاجِعَةٌ وَلَا كَالْفَوَاجِعِ . فَذَاتَ يَوْمٍ دُعِيتُ إِلَى مَكْتَبِ الْمُدِيرِ ، حَيْثُ وَجَدْتُ السَّيِّدَةَ كَرِيكَلَ بَانْتِظَارِي وَفِي يَدَيْهَا رِسَالَةً . وَقَالَتْ لِي : « يُحْزِنُنِي أَنْ أَخْبِرَكَ بِأَنَّ وَالِدَتَكَ مَرِيضَةٌ جَدًّا . » فَشَعَرْتُ وَكَأَنَّ الضَّبَابَ غَشِيَ عَيْنَيَّ وَأَحْسَسْتُ بِالدُّمُوعِ الْحَارَّةِ تَنْهَمِرُ عَلَى وَجْهَتِي . أَمَّا هِيَ ، فَأَكْمَلَتْ : « إِنَّ حَالَتَهَا خَطِيرَةٌ ، ثُمَّ أَفْلَتَتْ مِنْهَا الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنْتُ أَتَوَجَّسُّهَا : « لَقَدْ تُوُفِّيَتْ وَالِدَتُكَ . »

وَجَدْتُنِي ، فِي الْأَيَّامِ النَّالِيَةِ ، خَائِرَ الْقَوَى مِنْ شِدَّةِ الْغَمِّ ، وَلَمْ أَعُدْ أَعْيَ مَا يَجْرِي مِنْ حَوْلِي ، كُنْتُ ذَاهِلًا عَنِ الدُّنْيَا عِنْدَمَا وَضَعُونِي فِي عَرَبَةٍ لِنَقْلِ إِلَى الْبَيْتِ . وَلَمْ أَدْرِكْ أَنِّي كُنْتُ أَغَادِرُ «سالم هاوس» تِلْكَ الْمَرَّةَ مِنْ غَيْرِ عَوْدَةٍ .

وَلَا أَرَى حَاجَةً إِلَى أَنْ أَذْكُرَ بِالتَّفْصِيلِ أَيَّامَ أُمِّي الْأَخِيرَةِ الْأَلِيمَةِ وَجَنَازَتِهَا الْمُفْجِعَةِ . فَقَدْ مَاتَ أَخِي الصَّغِيرُ هُوَ أَيْضًا فَاجِرِي لَهُ وَلِأُمِّي مَا تَمُّ مُزْدَوِجٌ وَدُفِنَا مَعًا ، الصَّغِيرُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا . أَمَّا بِيغُوتِي الْمُسْكِينَةُ ، فَكَانَتْ كَسِيرَةَ الْقَلْبِ بَعْدَ أَنْ شَاهَدَتْ عَالَمَهَا الصَّغِيرَ الْمَأْلُوفَ يَنْهَارُ مِنْ حَوْلِهَا . وَمَا زَادَ فِي الطَّيْنِ بَلَّةً ، أَنَّ السَّيِّدَ مُرْدُسْتُونَ وَأُخْتَهُ صَرْفَاها مِنَ الْخِدْمَةِ . إِلَّا أَنَّ ذِكْرِي أُمِّي الْحَنُونَ الَّتِي سَتَبَقَى مَحْفُورَةً فِي قَلْبِي هِيَ ذِكْرَاهَا أَيَّامَ طُفُولَتِي الَّتِي قَضَيْتُهَا مَعَهَا وَمَعَ بِيغُوتِي فِي هَنَاءٍ وَسَعَادَةٍ . هَذِهِ الذِّكْرِيَّاتُ ، لَا شَيْءَ قَادِرٌ عَلَى سَلْبِهَا مِنِّي .

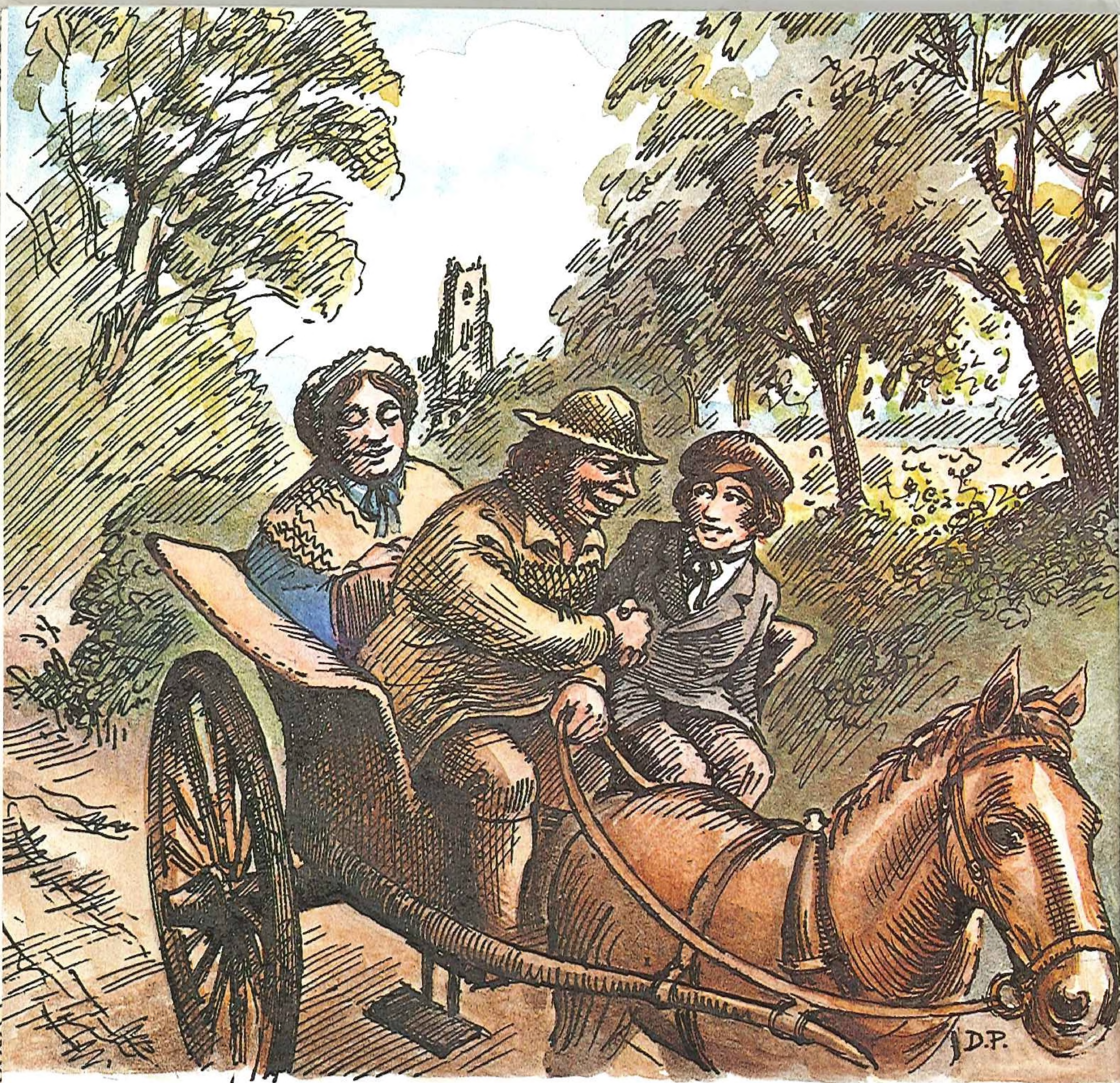
وَسَرَّتُنِي الْمُفَاجَأَةُ عِنْدَمَا عَرَضَ السَّيِّدُ مُرْدُسْتُونَ عَلَى بِيغُوتِي أَنْ تَأْخُذَنِي مَعَهَا إِلَى يَارْمُوثَ لِأَقْضِي عَطْلَةً قَصِيرَةً هُنَاكَ .

أَتَى بَارْكيسَ فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِنَقْلِنَا وَحَقَائِبِنَا إِلَى يَارْمُوثَ . وَفِيمَا أَخَذَتِ الْعَرَبَةُ تَجْرِي بِنَا عَلَى الطَّرِيقِ كَانَ بَارْكيسَ عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ طَلَقَ اللِّسَانَ .

وَهَمَسَ فِي أُذُنِي : «لَقَدْ اسْتَقَامَتِ الْأُمُورُ يَا سَيِّدُ كُوبِرْفِيلْدَ ، كُلُّ شَيْءٍ عَلَى مَا يُرَامُ .» وَأَمْسَكَ يَدَيَّ وَرَاحَ يَهْزُهَا بِحَرَارَةٍ ، ثُمَّ أَرْدَفَ : «أَنْتَ تَعْلَمُ مَنْ كَانَ رَاغِبًا حَقًّا . تَعْلَمُ أَنَّهُ بَارْكيسَ وَحْدَهُ .» وَأَكْمَلَ وَهُوَ يُومِئُ بِرَأْسِهِ وَيَغْمِزُنِي : «وَالآنَ لَا يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أَشْكُرَكَ .»

وَأَخِيرًا أَنْزَلَنَا أَمَامَ بَيْتِ السَّيِّدِ بِيغُوتِي ، وَكَمْ بَدَتْ لِي مَأْلُوفَةً تِلْكَ السَّفِينَةُ - بِنَوَافِذِهَا الصَّغِيرَةِ وَبِالدُّخَانِ الْمُتَصَاعِدِ مِنْ مَدَخَّتِهَا . وَكَانَ فَرَحِي عَظِيمًا بِلِقَاءِ أَصْدِقَائِي الثَّلَاثَةِ السَّيِّدِ بِيغُوتِي وَهَامَ وَإِمِيلِي الصَّغِيرَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ صَبِيَّةً فَاتِنَةً الْجَمَالِ ، وَلَمْ يَسْعُنِي إِلَّا أَنْ أُلَاحِظَ شَغَفَ هَامَ بِهَا وَرِعَايَتَهُ لَهَا وَكَانَهَا أُخْتَهُ الصَّغِيرَى .

وَسَأَلَنِي السَّيِّدُ بِيغُوتِي : «وَكَيْفَ حَالُ صَدِيقِكَ الشَّهْمِ ؟» فَسَأَلْتُهُ بِدَوْرِي : «تَعْنِي



سْتِيرْفُورْثُ ؟» وَأَجَابَ ، مُتَحَمِّسًا : «أَجَلُ ! هَذَا هُوَ اسْمُهُ ! إِنَّهُ لَصَدِيقٌ رَائِعٌ ! وَيَا لَهُ مِنْ شَابٍّ وَسِيمٍ !»

بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، كَانَتْ تَنْتَظِرُنِي مُفَاجَأَةً كَبِيرَةً . فَقَدْ تَزَوَّجَ بَارْكيسَ بِيغُوتِي فِي احْتِفَالٍ بَسِيطٍ . وَدَعَانِي بَارْكيسَ إِلَى عَرَبَتِهِ وَأَخْرَجَ الطَّبَاشِيرَ وَكَتَبَ اسْمَ «كَلَارَا بِيغُوتِي بَارْكيسَ» ، ثُمَّ اسْتَغْرَقَ فِي ضِحْكَةٍ تُفْصِحُ عَنْ سُورِهِ الْعَارِمِ . لَقَدْ ارْتَحْتُ كَثِيرًا لِأَنَّ عَزِيزَتِي بِيغُوتِي قَدْ عَثَرَتْ أَخِيرًا عَلَى السَّعَادَةِ بِاسْتِقْرَارِهَا فِي بَيْتِهَا الْجَدِيدِ . وَمَا لَبِثْتُ إِقَامَتِي فِي يَارْمُوثَ أَنْ انْتَهَتْ بِسُرْعَةٍ ، فَوَدَّعْتُ بِيغُوتِي وَبَقِيَّةَ أَجْبَائِي هُنَاكَ بِتَأَثُّرٍ بِالْغِ .

عُدْتُ إِلَى مَتْرِي وَقَدْ اسْتَوَظَنْتِ الْكَاتِبَةَ فِي قَلْبِي . فَبَعْدَ وَفَاةِ أُمِّي وَرَحِيلِ يِغْوَتِي لَمْ يَعْذُ يَرْبِطُنِي بِهِ شَيْءٌ . بَيِّدَ أَنِّي فُوجِئْتُ فِي الْيَوْمِ التَّالِي بِقَوْلِ السَّيِّدِ مُرْدُسْتُونِ إِنَّهُ لَنْ يُرْسِلَنِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، بَلْ عَلَيَّ أَنْ أَبْدَأَ الْعَمَلَ فِي مَكْتَبِ الْمُحَاسَبَةِ لَدَى شَرِكَةِ «مُرْدُسْتُونِ وَغَرْنِي» التَّجَارِيَّةِ الْوَاقِعَةِ فِي حَيِّ بَلَاكُفْرَايِرْزِ بِلْدُن . وَأَتَى الْمُدِيرُ السَّيِّدُ كَوَيْنُونِ وَاجْتَمَعَ بِالسَّيِّدِ مُرْدُسْتُونِ لِإِجْرَاءِ التَّرْتِيبَاتِ اللَّازِمَةِ لِذَلِكَ .

وَهَكَذَا أَصْبَحْتُ - فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ عُمْرِي - عَامِلًا كَادِحًا فِي خِدْمَةِ «مُرْدُسْتُونِ وَغَرْنِي» مُقَابِلَ أَجْرِ ضَخْمٍ يَبْلُغُ سِتَّةَ شِلِينَاتٍ أُسْبُوعِيًّا !! وَلَمْ أَعْمَلْ فِي مَكْتَبِ الْمُحَاسَبَةِ بَلْ فِي مُسْتَوْدَعٍ قَدِرَ تَرْتَعُ فِيهِ الْجِرْدَانُ ، يَقَعُ فِي زَقَاقٍ ضَيِّقٍ يُؤَدِّي إِلَى ضِفَّةِ النَّهْرِ . كَانَ عَلَيَّ أَنْ أَجْمَعَ أُلُوفَ الرُّجَاجَاتِ وَأُنْظِفَهَا يَوْمِيًّا . أَمَّا رِفَاقِي ، فَثَلَاثَةُ صَعَالِيكَ أَفْظَاطٍ يَجْهَلُونَ الْكِتَابَةَ وَالْقِرَاءَةَ . وَرَضَخْتُ لَهُذِهِ الْعُبُودِيَّةَ الْمُهِينَةَ ، كَاتِمًا عَذَابًا لَا يُوصَفُ .



وَذَاتَ صَبَاحٍ ، دَخَلَ حَيَاتِي فَجْأَةً ، شَخْصٌ غَرِيبٌ نَابِضٌ بِالْحَيَوِيَّةِ . إِنَّهُ كَهْلٌ بَدِينٌ يَرْتَدِي مِعْطَفًا أَسْوَدَ وَحِذَاءً مُوثَقًا بِإِزِيمٍ وَيَعْرِضُ صُلْعَةً لَامِعَةً . وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ ثِيَابِهِ الْبَالِيَةِ كَانَ يَحْمِلُ عَصًا يُومِيُّ بِهَا يَمِينًا وَشِمَالًا وَيُنْسِكُ نَظَارَةً لَهَا سِلْسِلَةٌ لَامِعَةٌ .

قَالَ السَّيِّدُ كَوَيْنُونُ : «هَذَا السَّيِّدُ مِيكُوبَر» . إِنَحْنَى السَّيِّدُ مِيكُوبَرُ بِلِيَاقَةٍ ، وَأَرْدَفَ كَوَيْنُونُ : «إِنَّ السَّيِّدَ مُرْدُسْتُونِ يَعْرِفُهُ مِنْذُ زَمَنٍ بَعِيدٍ . وَقَدْ طَلَبَ أَنْ تُقِيمَ فِي مَتْرِيهِ .» وَتَدَخَّلَ السَّيِّدُ مِيكُوبَرُ قَائِلًا : «عُنَاوِي : وَنَدَسُورُ تِرَاسُ ، سَيِّتِي رُود» .

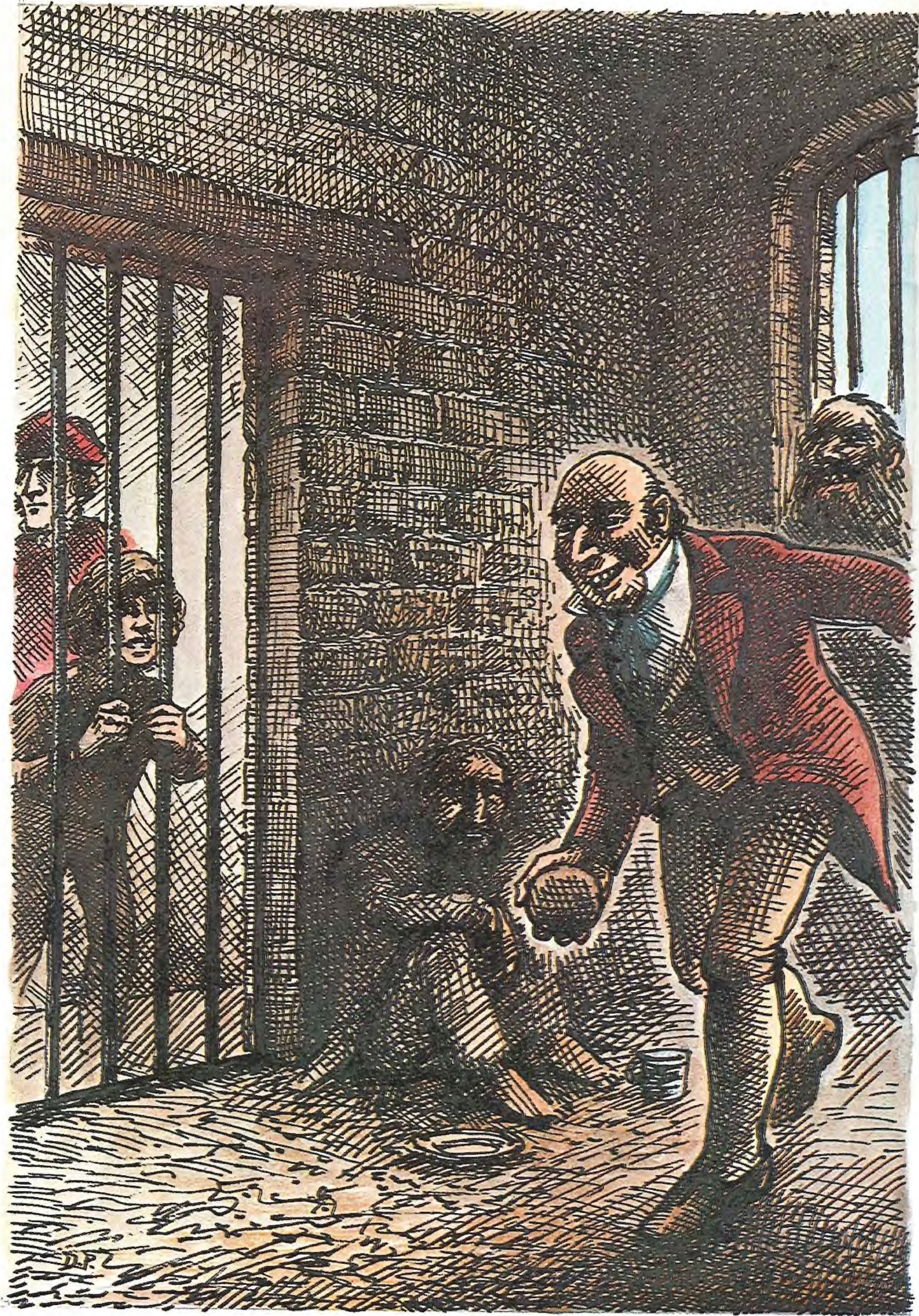
فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ حَضَرَ السَّيِّدُ مِيكُوبَرُ إِلَى الْمُسْتَوْدَعِ لِيَقُودَنِي إِلَى مَتْرِيهِ ، حَيْثُ عَرَفَنِي بِالسَّيِّدَةِ مِيكُوبَر . كَانَتْ امْرَأَةً فِي خَرِيفِ الْعُمْرِ ، نَحِيفَةً ذَابِلَةً الْوَجْهَ تُرْضِعُ أَحَدَ طِفْلَيْهَا التَّوَامَيْنِ . وَكُنْتُ دَائِمًا تَرَى أَحَدَهُمَا عَلَى صَدْرِهَا . وَقَدْ أَنْجَبَتِ السَّيِّدَةُ مِيكُوبَرَ وَلَدَيْنِ آخَرَيْنِ : السَّيِّدُ مِيكُوبَرُ الصَّغِيرُ وَهُوَ فِي الرَّابِعَةِ مِنْ عُمْرِهِ ، وَالْآنِسَةُ مِيكُوبَرُ وَلَهَا مِنَ الْعُمْرِ ثَلَاثُ سَنَوَاتٍ .

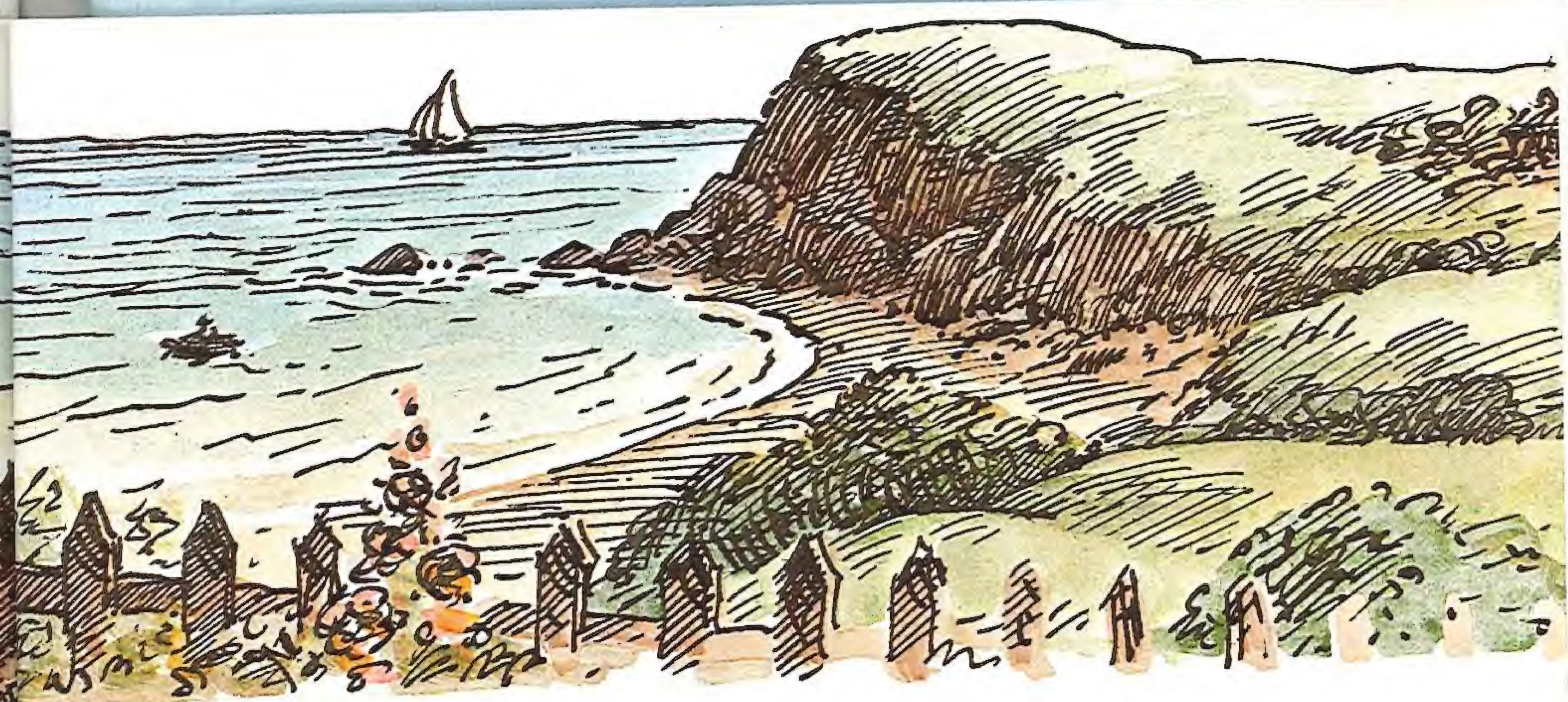
قَالَتْ لِي السَّيِّدَةُ مِيكُوبَرُ ، وَنَحْنُ نَصْعَدُ إِلَى الْغُرْفَةِ الْمُعَدَّةِ لِي : «لَمْ أَفَكَّرْ قَطُّ فِي تَأْجِيرِ الْغُرْفَةِ . لَكِنْ يَبْدُو أَنَّ السَّيِّدَ مِيكُوبَرُ يُوَاجِهُ بَعْضَ الصُّعُوبَاتِ فِي تَسْدِيدِ دُيُونِهِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ .» وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَيْرَتِي ، لَمْ يَسْعَنِي إِلَّا أَنْ أَقُولَ : «أَجَلٌ ، سَيِّدَتِي .»



سرَّعَانَ مَا تَبَيَّنَ لِي أَنَّ السَّيِّدَ مِكُوبِرَ اعْتَادَ أَنْ يَعِيشَ مُهَدَّدًا بِالْإِفْلَاسِ . فِي الْوَاقِعِ
كَلَفْتَنِي السَّيِّدَةُ مِكُوبِرَ مِرَارًا بِبَيْعِ أَشْيَاءٍ صَغِيرَةٍ قِيمَةٍ كَيْ تَتِمَكَّنَ مِنْ إِعَالَةِ الْأُسْرَةِ . إِلَّا أَنَّ
الْقَدَرَ كَانَ يُعِدُّ لِلْسَّيِّدِ مِكُوبِرَ ضَرْبَةً قَاسِيَةً ، فَأَوْقَفَ وَأَخَذَ إِلَى السَّجْنِ بِسَبَبِ عَدَمِ تَسْدِيدِهِ
الدُّيُونِ الْمُتْرَاكِمَةَ عَلَيْهِ . وَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَزُورَهُ عِدَّةَ مَرَّاتٍ فِي سِجْنِهِ حَيْثُ كَانَ يَبْدُو ، فِي
لَحْظَاتٍ بَائِسًا ، ثُمَّ ، بَعْدَ قَلِيلٍ ، يَشْتَرِكُ فِي لُعْبَةِ الْقَنَائِي الْخَشِيَّةِ مَعَ بَعْضِ زُمَلَائِهِ
الْمَسَاجِينِ ، كَأَنَّهُ لَا يَعْرِفُ الْهَمَّ . وَفِي سِجْنِهِ أَفَادَنِي بِرُؤْيَيْهِ الْفَلَسَفِيَّةِ لِلْحَيَاةِ ، قَائِلًا بِنَبْرَةٍ
مَهِيئَةٍ : « يَا سَيِّدُ كُوبِرْفِيلْدُ ، يَجِبُ أَنْ تَرَى فِي قَدْرِي الْمَشْهُومِ دَرْسًا تَتَعَلَّمُ مِنْهُ . إِنِّي أَقُولُ
لَكَ : إِذَا كَانَ مَدْخُولُكَ عِشْرِينَ جُنْيَهًا فِي السَّنَةِ وَأَنْفَقْتَهَا كُلَّهَا بِاسْتِثْنَاءِ نِصْفِ شِلِينٍ فَإِنَّكَ
تَكُونُ سَعِيدًا . أَمَّا إِذَا أَنْفَقْتَ وَاحِدًا وَعِشْرِينَ جُنْيَهًا فَمَصِيرُكَ الْبُؤْسُ وَالشَّقَاءُ . هَذَا كُلُّ مَا
عَلَيْكَ أَنْ تَعْرِفَهُ . وَلَكِنِّي مُتَاكِّدٌ مِنْ أَنَّ وَضْعِي سَيَتَغَيَّرُ فِي وَقْتٍ قَرِيبٍ جِدًّا عَلَى الرَّغْمِ مِنَ
الْعَذَابِ الَّذِي أَعَانِيهِ الْآنَ . »

وَتَحَمَّلَ السَّيِّدُ مِكُوبِرَ عِيشَتَهُ الْمَرِيرَةَ فِي السَّجْنِ ، خِلَالَ بَضْعَةِ أَسَابِيحَ ، إِلَى أَنْ أُطْلِقَ
سَرَاحُهُ فَجَاءَهُ بَعْدَ أَنْ قَامَ بَعْضُ أَقْرَبَائِهِ بِتَسْدِيدِ قِسْطٍ كَبِيرٍ مِنْ دُيُونِهِ . وَبَعْدَ الْإِفْرَاجِ عَنْ
السَّيِّدِ مِكُوبِرَ بِبَضْعَةِ أَيَّامٍ حَدَثَ شَيْءٌ مُهِمٌّ لِمَصْلَحَتِهِ ، فَقَدْ رَأَيْتُهُ يَسْتَقِلُّ عَرَبَةً مَعَ عَائِلَتِهِ
فَرَحِينَ مُبْتَهَجِينَ فِي بَدَايَةِ طَرِيقِهِمْ إِلَى پَلِيمُوثِ حَيْثُ كَانَ مَوْعُودًا بِعَمَلٍ فِي إِدَارَةِ
الْجَمَارِكِ ، وَتَأَسَّفْتُ عَلَى خَسَارَةِ ذَلِكَ الصَّدِيقِ الْكَرِيمِ الْبَشُوشِ ، إِلَّا أَنِّي شَعَرْتُ فِي
الْوَقْتِ نَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ الْارْتِيَاحِ لِأَنِّي لَنْ أَتَوَرَّطَ بَعْدَ الْآنَ بِمَشَاكِلِهِ الْيَوْمِيَّةِ الْعَصِيَّةِ .
وَحَمَلَنِي يَأْسِي آنَذَاكَ عَلَى اتِّخَاذِ قَرَارٍ جَرِيءٍ . فَرَفَضْتُ أَنْ أَتَحَمَّلَ بَعْدَ ذَلِكَ الْعُبُودِيَّةَ
وَالْإِذْلَالَ اللَّذَيْنِ عَرَفْتُهُمَا فِي مُسْتَوْدَعِ شَرِكَةِ «مُرْدِسْتون وَغَرْنِي» ، وَعَزَمْتُ عَلَى أَنْ أَهْرُبَ
وَأُبْحَثَ فِي دُوقِرَ عَنْ قَرِيبَتِي الْوَحِيدَةِ الْبَاقِيَةِ لِي عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ - الْعَمَّةِ بِتْسِي تِرُوتُوود .

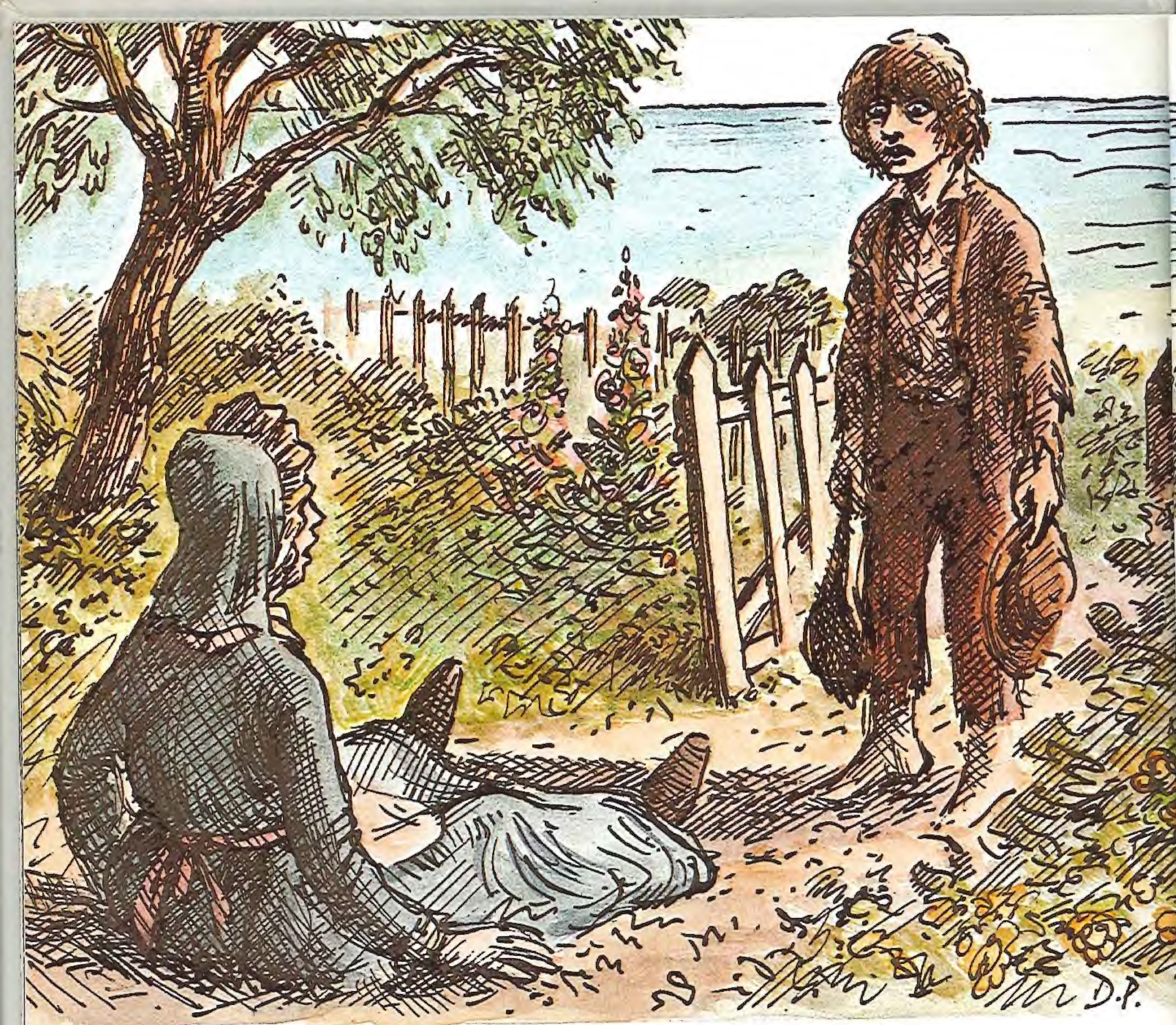




في نهاية الأسبوع قبضت رائي الأخير، فأصبح في محفظتي نصف جنيه. ووضعت صندوق ثيابي على ظهر عربة يقودها شاب التقيت به على الطريق، وانطلق بي إلى دوقة. بعد أن عبرنا بضعة أميال، توقف لأتمكن من لصق رقعة من الورق تحمل اسمي على الصندوق، إذ كنت قد تجنبت قصداً تسجيل اسمي والمكان الذي كنت أقصده قبل أن أغادر غرقتي. وبينما كنت أخرج الرقعة من محفظتي وقع منها نصف الجنيه وهو كامل ثروتي، وضعت عندما رأيت سائق العربة يتسبله على الفور. قال بنبرة تُنذر بالشر: «آه! إنك تحاول الفرار، أليس كذلك؟ أظن أنها قضية تخص الشرطة.»

خفت أن يؤذيني ذلك المحتال وتمنيت التخلص منه، فصرخت به: «رد لي مالي وصندوق ثيابي.» إلا أنه أصر على موقفه: «لا. لا. لا. لم تذهب إلى الشرطة، لتثبت لهم بنفسك أن المال والصندوق لك؟» ثم قفز إلى عربيته وانطلق بسرعة السهم، أخذاً نصف الجنيه والصندوق الذي يحتوي أمتعتي التافهة كلها.

لم يبق أمامي إذ ذاك إلا أن أمشي على قدمي نهاراً وأنام في أكوام التبن ليلاً إلى أن أبلغ دوقة. فمشيت خلال ستة أيام على الطريق المؤدية إلى دوقة مروراً بروشستر وكانتربوري حتى بلغ بي التعب كل مبلغ. وقد اضطررت لبيع صدرتي ومِعْطِي لأتمكن من شراء ما يسد جوعي. ووصلت إلى دوقة ملطخاً بالأوساخ ممزق الحذاء والثياب حتى إنني أصبحت أشبه بفزاعة الطيور.



وبعد أن استعلمت عن المكان، وجدت طريقي إلى كوخ بشي الصغير. فرحت أستجمع ما كان يلزمي من شجاعة لقرع الباب، إلا أن العمّة بشي خرجت في تلك اللحظة مُرتدية ثياب الحديقة ولمحتني عند الباب فصاحت: «هيا! ارحل من هنا!» فشرعت بالكلام وقد اعتراني الخجل: «أرجوك يا سيدي!» ارتعشت العجوز ورفعت بصرها إليّ. فأردفت: «أرجوك يا عمّي! إني قريبك ديشيد كوبرفيلد.»

ومن هول المفاجأة سقطت العمّة بشي أرضاً وظلت جالسة على أرض الممر محمّلة إليّ بعينين مفتوحين. ولكنها ما لبثت أن استعادت قواها، فأدخلتني بيتها، وجرّعتني الأدوية، وأكدت لي أنني سأستحمّ حالاً وأبدل ثيابي.

رُحْتُ أَتَفَحَّصُ عَمَّتِي بِفُضُولٍ : كَانَتْ امْرَأَةً طَوِيلَةَ الْقَامَةِ ، مَلِيحَةَ الْمَظْهَرِ ، ذَاتَ عَيْنَيْنِ بَرَّاقَتَيْنِ تَتَحَرَّكُ حَدَقَتَاهُمَا بِسُرْعَةٍ غَرِيبَةٍ . أَمَّا لِبَاسُهَا فَعَجِيبٌ بَلْ أَشْبَهُ بِرِدَاءِ الْفُرُوسِيَّةِ . وَكَانَتْ دَائِمًا تَحْمِلُ سَاعَةً كَالَّتِي يَحْمِلُهَا الرِّجَالُ مَعَ مَا يُرَافِقُهَا مِنْ سِلَاسِلَ . أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِطِبَاعِهَا فَقَدْ كَانَتْ خَشِينَةً حَاسِمَةً الْقَرَارِ ، وَأَحْيَانًا فَظَّةً إِلَى أَقْصَى حَدٍّ . فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِالذَّاتِ ، أَلْقَتْ نَظْرَةً عَلَى الْفُسْحَةِ الْخَضِرَاءِ الضَّيِّقَةِ خَارِجَ بُسْتَانِهَا . وَصَرَخَتْ لِخَادِمَتِهَا : « جَانِيتُ ! الْحَمِيرُ يَا جَانِيتُ ! » فَهَرَوَلَتْ الصَّبِيَّةُ إِلَى الْخَارِجِ وَأَمْسَكَتْ بِلِجَامِ أَحَدِ الْحَمِيرِ الَّتِي شَرَدَتْ مُتَهَكَّةً حُرْمَةَ الْمَرْجَةِ ، وَقَادَتْهُ بَعِيدًا ، وَرَاحَتْ تَلَكُّمُ أُذُنِ الْفَتَى الصَّغِيرِ الَّذِي يَقُودُهُ ، وَاتَّضَحَ لِي أَنَّ عَمَّتِي كَانَتْ تُكَافِحُ تِلْكَ الْحَمِيرَ الشَّارِدَةَ بِاسْتِمْرَارٍ ، فَتَحْتَفِظُ بِوَعَاءٍ مِنَ الْمَاءِ وَحُرْمَةٍ مِنَ الْقُضْبَانِ خَلْفَ بَابِهَا الْأَمَامِيِّ اسْتِعْدَادًا لِمُوَاجَهَةِ طَوَارِيٍّ مِنْ هَذَا النَّوعِ .

لَزِمَتْنِي أُسْبُوعَانِ كَامِلَانِ مِنَ الرَّاحَةِ وَالنَّعِيمِ لِاسْتَعِيدَ عَافِيَتِي ، بَعْدَ مَا عَانَيْتُهُ مِنْ شَقَاءٍ . وَتَحَقَّقْتُ شَيْئًا فَشَيْئًا مِنْ طِيبَةِ عَمَّتِي بِتَشْيٍ وَلُطْفٍ ، فَقَدْ عَمَّرَتْنِي بِحُبِّهَا وَحَنَانِهَا عَلَى الرُّغْمِ مِنْ غَرَابَةِ أَطْوَارِهَا وَتَقَلُّبِ مَزَاجِهَا ، حَتَّى إِنَّهَا أَصَرَّتْ عَلَى اقْتِرَانِ اسْمِي بِاسْمِهَا « تروتوود » . وَذَاتَ صَبَاحٍ قَالَتْ لِي بِطَرِيقَتِهَا الْخَشِينَةِ الَّتِي طَالَمَا اعْتَدْتُهَا : « يَجِبُ أَلَّا نَتَغَاضَى عَنْ أَمْرِ تَعْلِيمِكَ يَا تروت ! (وَكَانَ يَطِيبُ لَهَا أَنْ تُدَلِّعَنِي بِهَذَا الْاسْمِ) أَتَوَدُّ أَنْ أُرْسِلَكَ إِلَى مَدْرَسَةٍ فِي كَانْتَرِبُورِي ؟ » فَاجَبْتُهَا أَنَّ ذَلِكَ يَسْرُنِي فِعْلًا لَا سِيَّمَا وَإِنِّي فِي هَذِهِ الْحَالِ لَنْ أَبْتَعِدَ عَنْهَا كَثِيرًا .

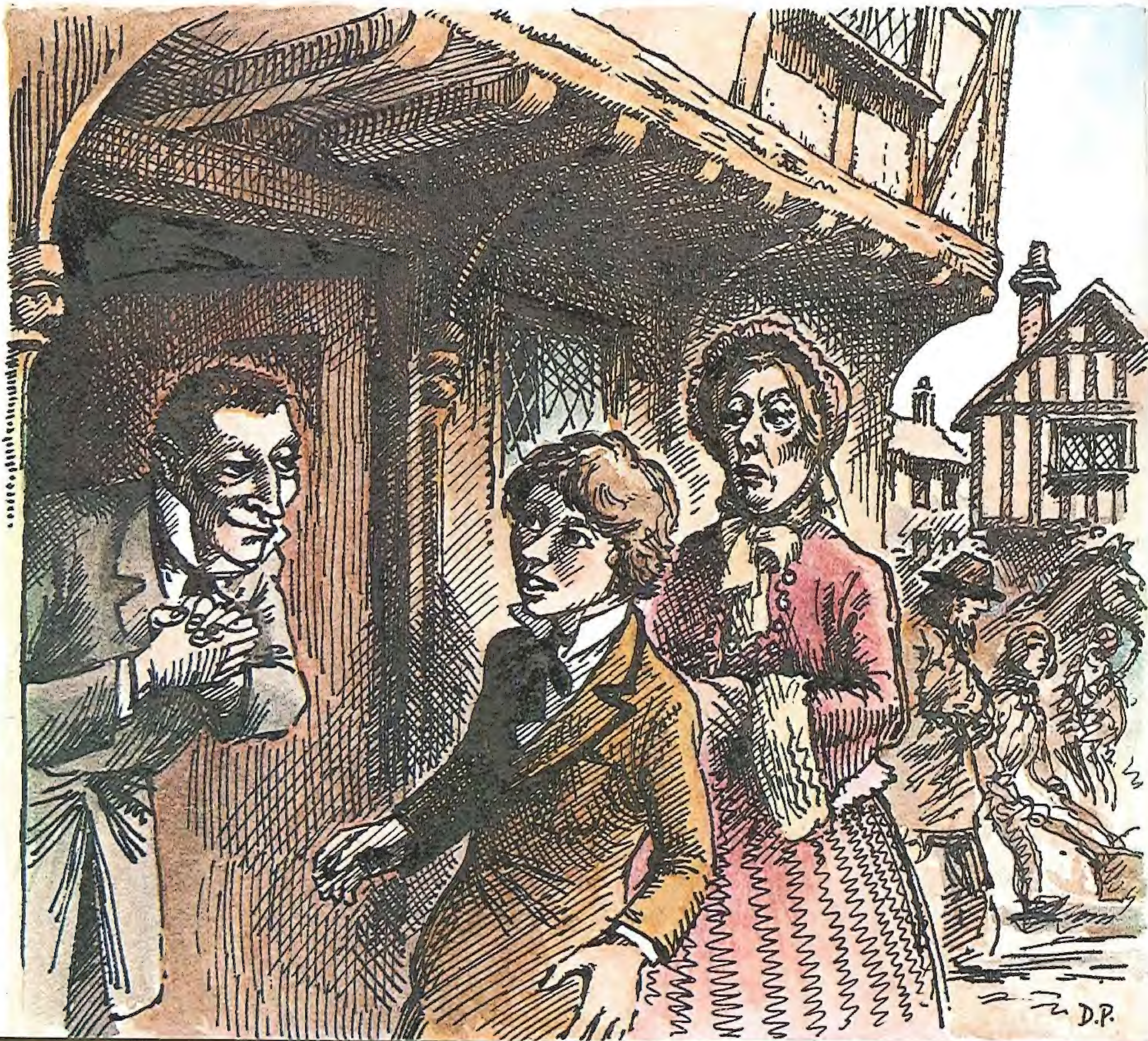
وَهَكَذَا ، اتَّجَهْنَا ، فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ، إِلَى مَكْتَبِ مُحَامِيهَا السَّيِّدِ وَكْفِيلِدْ فِي كَانْتَرِبُورِي . حَيْثُ اسْتَقْبَلَنَا شَخْصٌ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ الَّذِينَ عَرَفْتُهُمْ فِي حَيَاتِي غَرَابَةً وَأَبْغَضَهُمْ إِلَيَّ . وَكَانَتْ عَمَّتِي تَعْرِفُهُ جَيِّدًا . فَسَأَلَتْهُ : « يَا سَيِّدُ أَوْرِيَا هِيْب ، هَلِ الْأُسْتَاذُ وَكْفِيلِدْ هُنَا ؟ » فَاجَابَهَا مُنْحِنًا عَلَى سَبِيلِ الْمُجَامَلَةِ : « أَجَلُ سَيِّدَتِي . سَأَقُودُكَ إِلَيْهِ . » وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ إِلَى السَّيِّدِ هِيْبِ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِسْتِزَارِ ، إِذْ كَانَ وَجْهُهُ هَزِيلًا شَاحِبًا ، أَمَّا شَعْرُهُ فَضَارِبٌ إِلَى الْحُمْرَةِ وَكَذَلِكَ عَيْنَاهُ . وَمَا اسْتَعْرَبَتْهُ بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ أَنِّي لَمْ أَرِ فِي وَجْهِهِ أَثَرًا لِحَاجِبَيْنِ . وَرَاحَ يَلُوي يَدَيْهِ الْمُتَشَابِكَتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ - وَكَانَهُمَا مِنْ هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ - وَهُوَ يَنْحَنِي

وَيَنْحَنِي أَمَامَنَا . فَبَدَأَ لِي أَقْرَبَ إِلَى الزَّوَاحِفِ مِنْهُ إِلَى الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ .

رَحَّبَ بِنَا السَّيِّدُ وَكْفِيلِدْ عِنْدَمَا أُدْخِلْنَا مَكْتَبَهُ ، قَائِلًا : « أَهْلًا بِالْآنِسَةِ بِتَشْيٍ تروتوود ! مَا الَّذِي حَمَلَكُمْ إِلَيْنَا ؟ »

أَجَابَتْهُ عَمَّتِي : « لَمْ آتِ لِاسْتَشِيرِكَ فِي مَسْأَلَةٍ قَانُونِيَّةٍ ، بَلْ لِالْتِمَسَ مِنْكَ نَصِيحَةً فِي شَأْنِ اخْتِيَارِ مَدْرَسَةٍ لِابْنَتِي لِقَرِيبِي دِيْقِيدِ كُورْفِيلِدْ . فَإِنِّي عَمَّةٌ أَبِيهِ . »

أَجَابَ السَّيِّدُ وَكْفِيلِدْ : « أَعْرِفُ مَدْرَسَةً تُنَاسِبُ طَلَبَكَ . فِي كَانْتَرِبُورِي مَدْرَسَةٌ مُمْتَازَةٌ . وَإِنَّهُ لَمِنْ دَوَاعِي السُّرُورِ بِالنِّسْبَةِ لِي أَنَّ يَقُطْنَ هَذَا الشَّابُّ فِي بَيْتِي ، وَلَوْ فِي الْفَتْرَةِ الْأُولَى . »



كَانَ السَّيِّدُ وَكَفِيلُ شَيْخَا شَهْمًا وَدُودًا بَالِغَ الْأَنَاقَةِ ، ذَا جِسْمٍ بَدِينٍ .

صَعِدَ بِنَا إِلَى الطَّبَقَةِ الْعُلْوِيَّةِ لِنَعْرِفَنَا بِمُدَبَّرَةِ مَتَرِلِهِ . وَعَجَبْتُ لِحَدَاثَةِ سِنِّهَا ، إِذْ كَانَتْ فَتَاةً حَسَنَاءَ مِنْ عُمْرِي ، تَتَحَلَّى بِهَدُوءٍ وَصَفَاءٍ نَادِرَيْنِ . إِنَّهَا ابْنَتُهُ أَغْنَسُ ، الْمَشْغُوقَةُ بِأَبِيهَا . وَالَّتِي تَلْبِي كُلَّ حَاجَاتِهِ بِكُلِّ مَحَبَّةٍ وَاحْتِرَامٍ .

بَعْدَ أَنْ أَنْجَزْتُ عَمَّتِي مَا جَاءَتْ مِنْ أَجْلِهِ ، تَأَهَّبْتُ لِلْعُودَةِ إِلَى دُوقِر . وَقَبْلَ أَنْ تَرَحَّلَ أَسَدْتُ إِلَيَّ النَّصِيحَةَ التَّالِيَةَ : «يَجِبُ أَنْ تَكُونِ مَوْضِعَ فَخْرٍ ، لِي وَلِنَفْسِكَ . أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ . وَإِيَّاكَ مِنَ الْقَسَاوَةِ وَالذَّنَاءَةِ وَالكَذِبِ . فَاحْذَرِ هَذِهِ الْعُيُوبَ الثَّلَاثَةَ فِي كُلِّ أَفْعَالِكَ .» وَتَرَكَتْنِي وَذَهَبَتْ حَزِينَةً مُنْقَبِضَةً النَّفْسِ .

إِصْطَحَبَنِي السَّيِّدُ وَكَفِيلُ فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ إِلَى الْمَدْرَسَةِ ، مُرُورًا بِالْكَاتِدْرَائِيَّةِ ، وَدَخَلْنَا الْمَدْرَسَةَ مَعًا كَيْ يُقَدِّمَنِي لِمُدِيرِهَا الدُّكْتُورِ سْتِرُونْغِ . وَقَضَيْتُ مَا تَبَقِيَ مِنْ ذَلِكَ النَّهَارِ فِي الْمَدْرَسَةِ حَيْثُ تَعَرَّفْتُ إِلَى بَعْضِ أَسَاتِذَتِي وَعَدَدٍ كَبِيرٍ مِنْ زُمَلَائِي . كَانَ الطُّلَّابُ مِنْ

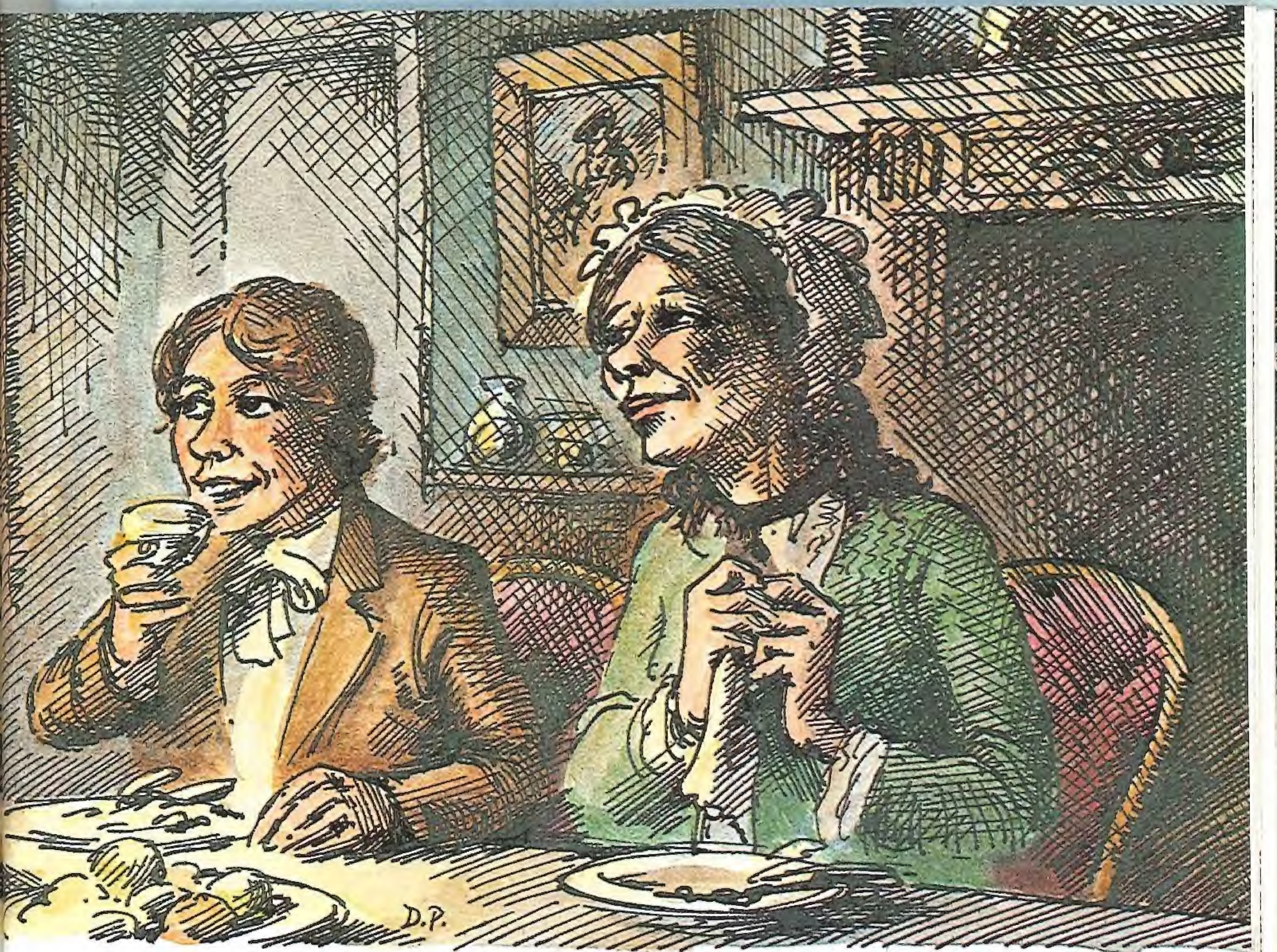
الشُّبَّانِ الْمُهْدَبِينَ الَّذِينَ يَعْجِزُونَ عَنْ تَصَوُّرِ مَا عِشَّتُهُ مِنْ تَجَارِبِ قَاسِيَةٍ فِي مَدْرَسَتِي السَّابِقَةِ . وَمِنْ الْبِدَاهَةِ الْقَوْلُ إِنِّي لَمْ أَتَفَوَّهَ أَمَامَهُمْ بِكَلِمَةٍ فِي هَذَا الشَّانِ .

كَانَ الدُّكْتُورُ سْتِرُونْغِ رَجُلًا شَهْمًا وَمُثَقَّفًا ، وَهُوَ بَعِيدٌ عَنِ السَّيِّدِ كَرِيكَلِ بَعْدَ السَّمَاءِ عَنِ الْأَرْضِ . وَسَاوَرَنِي شُعُورٌ بِالْفَرَحِ إِزَاءَ انْتِقَالِي إِلَى تِلْكَ الْمَدْرَسَةِ .

إِنْتَهَى يَوْمِي الْأَوَّلُ فِي الْمَدْرَسَةِ ، وَعُدْتُ ، بَعْدَ الظُّهْرِ ، إِلَى مَتَرِلِ السَّيِّدِ وَكَفِيلِ ، فَاسْتَقْبَلَتْنِي أَغْنَسُ فِي غُرْفَةِ الْجُلُوسِ ، حَيْثُ كَانَتْ بِانْتِظَارِ أَبِيهَا . رُحْنَا نَتَجَادَبُ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ ، وَاتَّضَحَ لِي أَنَّهَا كَانَتْ مُخْلِصَةً كُلَّ الْإِخْلَاصِ لِوَالِدَيْهَا ، مُكَرَّسَةً حَيَاتَهَا لِرِعَايَتِهِ . فَطَبَعْتُ فِي نَفْسِي صُورَةً طَيِّبَةً عَنْ شَخْصِهَا لَا يُمَكِّنُ أَنْ تُمَحَى .

أَيْقَنْتُ ، فِيمَا بَعْدُ ، بِالرُّجُوعِ إِلَى نَفْسِي ، أَنِّي لَمْ أَزَلْ أُحِبُّ إِمِيلِي الصَّغِيرَةَ . إِلَّا أَنِّي كُنْتُ أَزْدَادُ تَعَلُّقًا بِأَغْنَسِ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ . إِذْ لَمْ أَعْرِفْ أَحَدًا يُمَاطِلُهَا فِي قُدْرَتِهَا عَلَى إِشَاعَةِ الْوِثَامِ وَالرَّأْفَةِ وَالْمَحَبَّةِ أَيْنَمَا ذَهَبَتْ .





وبما أَنِّي كُنْتُ أَقِيمُ فِي مَنَزْلِ السَّيِّدِ وَكُفَيْلِدَ، كَانَ لَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أَلْتَقِيَ بِأُورِيَّا هِيبَ مِنْ حِينٍ لِآخَرَ. وَكُنْتُ كُلَّمَا أَرَدْتُ بِهِ مَعْرِفَةً أَرْدَادَ كُرْهِي لَهُ: لَمْ أَتَحْمَلْ تَمَلُّقَهُ الدَّيْنِ وَتَذَلُّلَهُ، فَحَاوَلْتُ أَنْ أَتَجَنَّبَهُ قَدَرُ الْمُسْتَطَاعِ.

فَوَجِئْتُ يَوْمًا، بِزِيَارَةِ السَّيِّدِ مِيكُوبَر، الَّذِي كُنْتُ أَحْسَبُهُ يَعْمَلُ فِي الْجَمَارِكِ فِي بَلِيمُوثَ، وَلَكِنْ يَبْدُو أَنَّ خُطَطَهُ قَدْ فَشِلَتْ. كَانَ فِي طَرِيقِ عَوْدَتِهِ إِلَى لَنْدُنَ، فَقَرَّرَ أَنْ يَمُرَّ بِكَانْتَرِبُورِي، وَنَزَلَ فِي فُنْدُقٍ وَضِعَ حَيْثُ دَعَانِي إِلَى تَنَاوُلِ الْعِشَاءِ مَعَهُ. وَكَانَتْ تِلْكَ الْمُنَاسَبَةُ نَمُودَجًا عَنْ ضِيَافَةِ السَّيِّدِ مِيكُوبَرِ الطَّنَانَةِ. تَأَلَّفَ الْعِشَاءُ مِنْ طَبَقٍ فَاحِرٍ مِنَ السَّمَكِ فَطَبَقٍ آخَرَ مِنْ لَحْمِ الْبَقَرِ، ثُمَّ الْمَقَاتِقِ، وَأَخِيرًا حَجَلٍ سَمِينٍ، تَبَعَهُ قَالِبٌ حَلْوَى غَنِيٌّ بِالْفَاكِهَةِ وَشَهِيٍّ، فَضْلًا عَمَّا وَكَبَ الطَّعَامَ مِنْ شَرَابٍ. وَبَعْدَ الْعِشَاءِ قَدَّمَ لَنَا مُضِيفُنَا الْكَرِيمُ شَرَابًا مِنْ صُنْعِهِ. وَطَوَالَ ذَلِكَ الْمَسَاءِ، كَانَ السَّيِّدُ مِيكُوبَرُ يَقِضُ فَرَحًا، وَكَذَلِكَ زَوْجَتُهُ، فَقَدْ اسْتَسَلَّمَتْ لِلتَّفَاوُلِ وَالْمَرَحِ. وَرُحْنَا نَتَغَنَّى بِالصَّدَاقَةِ الَّتِي لَا تَفْنَى،

وَأَخِيرًا افْتَرَقْنَا فِي قُلُوبِنَا طُمَأْنِينَةً وَهَنَاءً.

وَيُمْكِنُ تَصَوُّرُ مَدَى حَيْرَتِي عِنْدَمَا تَسَلَّمْتُ، فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، رِسَالَةً مِنَ السَّيِّدِ مِيكُوبَرِ، حَامِلَةً تَارِيخَ اللَّيْلَةِ السَّابِقَةِ فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةِ عَشْرَةَ وَالنِّصْفِ، أَيْ مَا لَا يَتَعَدَّى رُبْعَ السَّاعَةِ بَعْدَ مُغَادَرَتِي مَنَزَلَهُ. وَقَدْ جَاءَ فِيهَا مَا يَلِي:

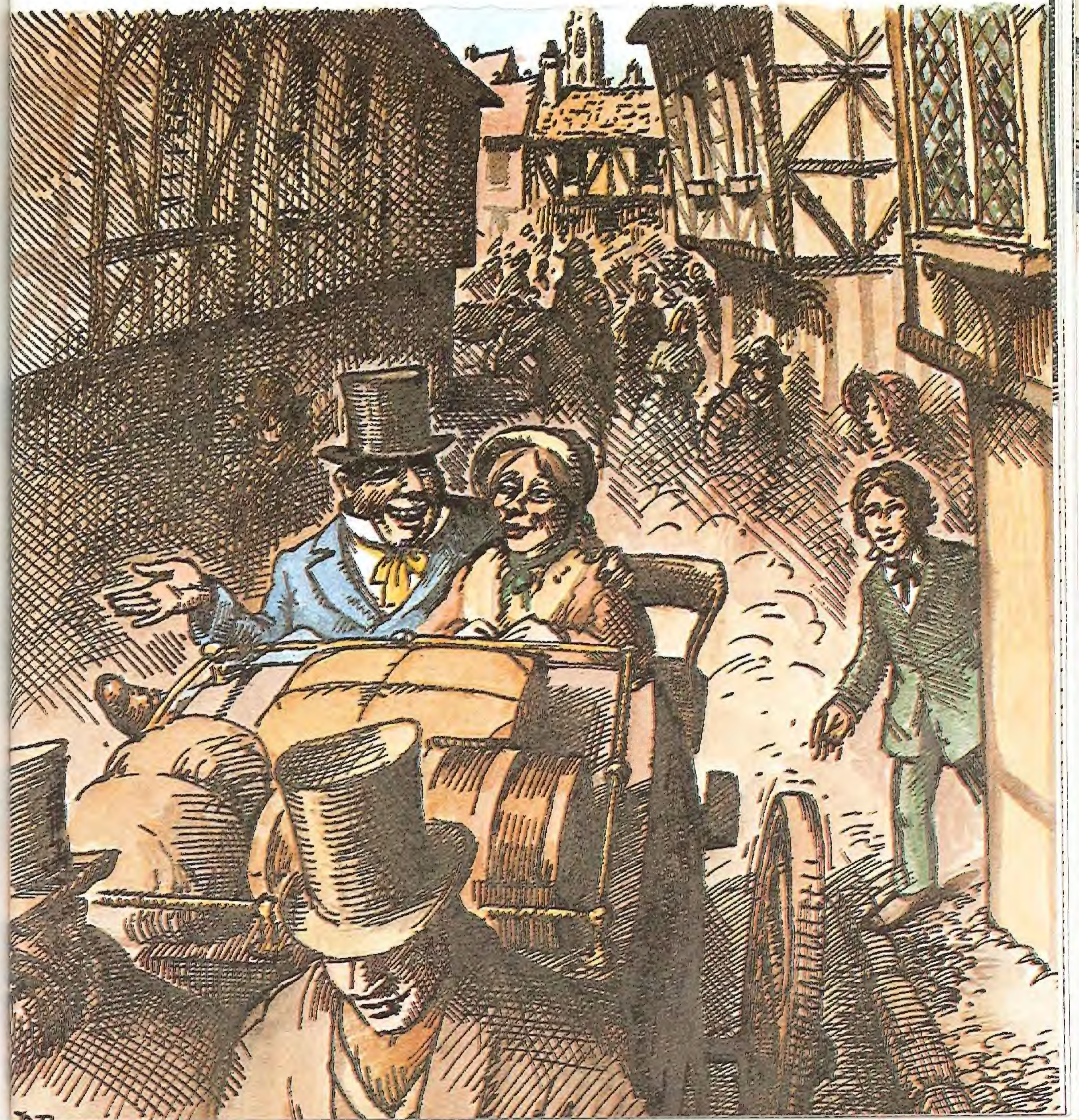
يَا صَدِيقِي الشَّابَّ الْعَزِيزَ،

لَقَدْ سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلَ، لَقَدْ وَقَعَتْ سَنَدَاتٌ وَتَعَهَّدَاتٌ بِدَفْعِ مَبَالِغِ ضَخْمَةٍ أَجْدُ نَفْسِي عَاجِزًا عَنْ تَسْدِيدِهَا. سَتَكُونُ النَّتِيجَةُ وَخِيمَةً. أَتَمَنَّى أَنْ تَكُونَ مِحنَتِي الْقَاسِيَةَ بِمِثَابَةِ دَرْسٍ مُفِيدٍ لَكَ. لَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلَى النَّهَايَةِ. وَهَذِهِ آخِرُ رِسَالَةٍ تَبَلَّغُهَا مِنِّي يَا عَزِيزِي كُوبِرْفِيلِدَ.

مِنَ الْمُفْلِسِ الْمُنْبُوذِ

وَلِكِثْرِ مِيكُوبَرِ

وحينما قرأت هذه الرسالة المشؤومة، أسرعت إلى الفندق حيث كان يقيم سعيًا لمؤاساته. وما إن بلغت مُتَّصِفَ الطريق حتى وَقَعَ نظري على العربّة المتجهّة إلى لندن وفيها السيّد ميكور وزوجته. وبدا لي صديقي المُفلسُ نموذجًا مُجسّدًا عن المُتعة والطُمأنينة، وهو يبتسم لِزَوْجَتِهِ التي تُحادثُهُ وهما يأكُلاَنِ ثَمَارَ البُنْدُق. ولمَحْتُ رَأْسَ



زُجاجة شرابٍ خارجًا من جيبِ سُتْرَتِهِ. فَآثَرْتُ أَنَّ أَنَسَحِبَ مِنْ غَيْرِ أَنْ أُعْلِنَ حُضُوري وسَلَكْتُ شَارِعًا فَرَعِيًّا قاصِدًا مَدْرَسَتِي.

وتَلاحَقَتِ الأَيَّامُ في مَدْرَسَةِ كَانْتَرِبُوري سَرِيعَةً، وبِفَضْلِ تَوْجِيهِ الدُّكُورِ سَتْرُونغِ وزُمَلَائِهِ أَحْرَزْتُ تَقَدُّمًا لَا يُسْتَهَانُ بِهِ آلَ بِي إِلَى التَّمَيُّزِ فَاصْبَحْتُ في مُقَدِّمَةِ تَلَامِيذِ المَدْرَسَةِ. وَطَوَالَ تِلْكَ السَّنَوَاتِ لَمْ تَتَزَعَّرْ مَحَبَّتِي لِأَغْنِسَ، كَمَا زَيْنَ لِي خَيَالِي الحَالِمِ أَنِّي مَا زِلْتُ مُغْرَمًا بِإِمِيلِي الصَّغِيرَةِ، وَإِنْ لَمْ أُعِدْ أَرَاهَا إِلَّا نَادِرًا فِي تِلْكَ الأَيَّامِ.

وَحَانَ الوَقْتُ أَخِيرًا لِمُغَادَرَةِ المَدْرَسَةِ، فَوَدَّعْتُ الدُّكُورَ سَتْرُونغَ الَّذِي اسْتَحَقَّ كُلَّ تَقْدِيرِي وَدَاعًا تَرَكَ أَثَرَهُ فِي نَفْسِي. ثُمَّ تَاهَبْتُ نَفْسِيًّا، وَتَوَجَّهْتُ لَوَدَاعِ مَأْسَاوِيٍّ لِلْسَيِّدِ وَكُنَيْلِدِ وَأَغْنِسَ. فَمَهْمَا انْقَلَبَ مَجْرَى حَيَاتِي لَمْ أَكُنْ لِأَنْسَى قُدْرَةَ أَغْنِسَ عَلَى نَشْرِ السُّكُونِ والطُمأنينةِ مِنْ حَوْلِهَا.

قَصَدْتُ عَمَّتِي بِتْسِي، فَوَجَدْتُهَا فَرِيسَةً لِلْحَيَرَةِ وَالْقَلَقِ عَلَى مُسْتَقْبَلِي خُصُوصًا بَعْدَ أَنْ تَرَكْتُ المَدْرَسَةَ. وَنَاقَشْنَا مَعًا شَتَّى الإِمْكَانِيَّاتِ، لَكِنَّ عَمَّتِي رَأَتْ أَنَّ أَذْهَبَ أَوَّلًا فِي عَظَلَةٍ إِلَى يَارْمُوثَ لِزِيَارَةِ أَصْدِقَائِي الْقَدَمَاءِ، وَأَثَارَتْنِي فِكْرَةُ الِاتِّقَاءِ مِنْ جَدِيدٍ بِأَصْدِقَائِي: مُرَبِّيَتِي العَزِيزَةَ وَالسَيِّدَ بِيغُوتِي وَهَامَ وَإِمِيلِي الصَّغِيرَةَ. فَلَمْ أَلْبَثْ أَنْ رَكِبْتُ عَرَبَةً وَاتَّجَهْتُ نَحْوَ لَنْدُنَ فِي طَرِيقِي إِلَى يَارْمُوثَ.

وَبِصُدْفَةٍ عَجِيبَةٍ التَّقَيْتُ بِصَدِيقِي الْقَدِيمِ سَتِيرْفُورْثَ بَطَلِ طُفُولَتِي، فِي الْفُنْدُقِ بِلَنْدُنَ. وَلَمْ أَكُنْ قَدِ التَّقَيْتُهُ كَثِيرًا فِي السَّنَوَاتِ الْآخِرَةِ. وَمَا إِنْ عَلِمَ بِغَايَةِ سَفَرِي حَتَّى فَاجَأَنِي بِقَوْلِهِ إِنَّهُ يَرْغَبُ بِمُرَافَقَتِي. وَفِي الْيَوْمِ التَّالِيِ اسْتَأْجَرْنَا عَرَبَةً نَقَلْتَنَا إِلَى يَارْمُوثَ.

بَلَعْنَا يَارْمُوثَ عَصْرًا، فَحَجَرْنَا غُرَفَتَيْنِ فِي أَحَدِ الْفَنَادِقِ. ثُمَّ قُمْتُ بِزِيَارَةِ بَعْضِ الْأَصْدِقَاءِ قَبْلَ زِيَارَةِ آلِ بِيغُوتِي. وَأَزَعَجَنِي مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَقْوَالِ نَمَامَةٍ وَخَبِيثَةٍ بِأَنَّ إِمِيلِي الصَّغِيرَةَ كَانَتْ تُبْعِدُ نَفْسَهَا عَنْ شَبَابِ الْمِنْطَقَةِ تَكْبَرًا.

قَصَدْتُ مَتَرَلْ عَزِيزِي بِيغُوتِي ، الَّتِي ذَرَفَتْ دُمُوعَ الْفَرَحِ لِرُؤُوتِي مِنْ جَدِيدٍ . وَقَالَتْ وَهِيَ تَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهَا بِشِدَّةٍ : « يَا عَزِيزِي دِيقِي ! بَارَكِيسَ الْمَسْكِينِ لَيْسَ عَلَى مَا يُرَامُ ، لَكِنَّهُ سَيَسْعَدُ بِرُؤُوتِكَ . »

وَبِالْفِعْلِ دَخَلْتُ عَلَى بَارَكِيسَ ، فَوَجَدْتُهُ مَرِيضًا طَرِيحَ الْفِرَاشِ . إِلَّا أَنَّهُ رَحَّبَ بِي بِبِشَاشَةٍ ، وَرُحْنًا تَذَكَّرُ الْأَيَّامَ الْغَابِرَةَ . بَعْدَ قَلِيلٍ ، لَحِقَ بِي سَتِيرْفُورْتْ ، بِحَسَبِ اتِّفَاقِنَا ، وَانْطَلَقْنَا مَعًا إِلَى بَيْتِ السَّيِّدِ بِيغُوتِي .

وَمَا إِنْ دُسْنَا عَتَبَةَ ذَلِكَ الْمَتَرَلِ ، الَّذِي بَاتَ مَأْلُوفًا لِي ، حَتَّى رَحَّبَ بِنَا أَهْلُهُ أَحَرَّ تَرْحِيبٍ . وَأَبْدَى سَتِيرْفُورْتْ لَطَافَةً أَكْسَبَتْهُ مَوَدَّةَ الْعَائِلَةِ بِأَسْرَهَا . وَلَوْ قَالَ لِي أَحَدُهُمْ إِنَّهُ كَانَ يُمَثِّلُ دَوْرًا وَإِنَّهُ لَمْ يَرِ فِي تِلْكَ الْمُنَاسَبَةِ إِلَّا فُرْصَةً لِشُبْعِ غُرُورَةِ الطَّائِشِ ، مَا كُنْتُ لِأَصَدَّقَهُ . وَا لَلْصَّدَمَةِ الْمُفْجِعَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسْتَظِرُّنِي !

أَمَّا حُبِّي الْأَوَّلُ ، إِمِيلِي الصَّغِيرَةُ ، فَقَدْ غَدَتْ صَبِيَّةً جَمِيلَةً . وَقَدْ لَفَّتَتْهَا وَسَامَةُ سَتِيرْفُورْتْ وَأَنَاقَتُهُ ، فَأَخَذَتْ تَتَجَنَّبُ هَامَ بِحُضُورِهِ ، مُتَغَاضِيَةً عَنْ كَوْنِهِ الرُّوجَ الْمُسْتَظَرَّ بِرَأْيِ الْجَمِيعِ .

كَانَتْ السَّاعَةُ عَلَى وَشَكِّ أَنْ تَدُقَّ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ عِنْدَمَا غَادَرْنَا . وَفِي طَرِيقِنَا إِلَى الْفُنْدُقِ ضَحِكَ سَتِيرْفُورْتْ وَقَالَ : « يَا لَهَا مِنْ أُمُوسِيَّةٍ مُسَلِّيَةٍ . لَكِنِّي وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ الصَّغِيرَةَ إِمِيلِي طَبَقُ أَفْخَرُ مِنْ أَنْ يَلْتَهُمَهُ ذَلِكَ الصَّيَّادُ الْمَغْفَلُ ، هَام ! » وَأَثَارَتْ مُلَاحَظَتُهُ تِلْكَ قَلْبِي وَانْزِعَاجِي .

مَكُنَّا فِي مِيقَةِ يَارْمُوثَ مُدَّةَ أُسْبُوعَيْنِ . وَقَدْ أَمْضَى سَتِيرْفُورْتْ مُعْظَمَ وَقْتِهِ مُبْجَرًّا فِي مَرْكَبِ السَّيِّدِ بِيغُوتِي مُتَحَمِّلًا أَسْوَأَ حَالَاتِ الطَّقْسِ وَكَأَنَّهُ مَلَّاحٌ مُنْذُ صِغَرِهِ . وَشَغِفَ بِالْبَحْرِ لِدَرَجَةٍ أَنَّهُ ابْتَنَعَ مَرْكَبًا اسْمُهُ « الطَّائِرُ الْبَحْرِي » إِلَّا أَنَّهُ حَوَّلَهُ رَأْسًا إِلَى اسْمِ آخَرَ : « إِمِيلِي الصَّغِيرَةُ » . وَقَدْ سَاعَدَهُ السَّيِّدُ بِيغُوتِي فِي طَلْيِ الْمَرْكَبِ وَفَحْصِهِ بِعِنَايَةٍ ، وَوَعَدَهُ بِأَنْ يَعْتَنِيَ بِهِ أَثْنَاءَ غِيَابِهِ .

عَشِيَّةَ رَحِيلِنَا ، بَيْنَمَا كُنْتُ مَعَ سَتِيرْفُورْتْ وَهَامَ وَإِمِيلِي فِي بَيْتِ السَّيِّدِ بِيغُوتِي ، حَدَثَ

شَيْءٌ غَرِيبٌ . فَقَدْ أَجْهَشَتْ إِمِيلِي بِالْبُكَاءِ فَجْأَةً وَقَالَتْ : « لَسْتُ أَبَدًا الْفَتَاةَ الْعَاقِلَةَ الَّتِي تَظُنُّهَا ، يَا هَام . » وَتَمَادَتْ فِي الْبُكَاءِ حَتَّى بَدَتْ عَلَى وَشَكِّ الْإِنْهَارِ . وَأَرْدَفَتْ قَائِلَةً : « يَا هَام ، إِنِّي أَقْسُو عَلَى حُبِّكَ كَثِيرًا . كَانَ مِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تَقَعَ فِي حُبِّ فَتَاةٍ أُخْرَى تَكُونُ جَدِيرَةً بِحُبِّكَ . »

وَمَا لَبِثَ عَمُّهَا السَّيِّدُ بِيغُوتِي أَنْ هَدَّأَهَا . وَاطْمَأَنَّ قَلْبِي لِرُؤُوتِهَا تَعَوُّدٌ وَتَضُمُّ إِلَيْهَا هَامَ الْمُخْلِصَ بَعْدَ أَنْ اسْتَعَادَتْ هُدُوءَهَا .



في صباح اليوم التالي، بينما كنتُ أتهيأُ وستيرفورت للرحيل إلى لندن، تَجَمَّعَ أصدقاؤنا جميعًا وودَّعونا وداعًا حارًّا.

افترقنا أنا وستيرفورت في لندن، فركبتُ العربَّةَ المتوجَّهةَ إلى دوفر لإزور العمَّةَ بُشي.

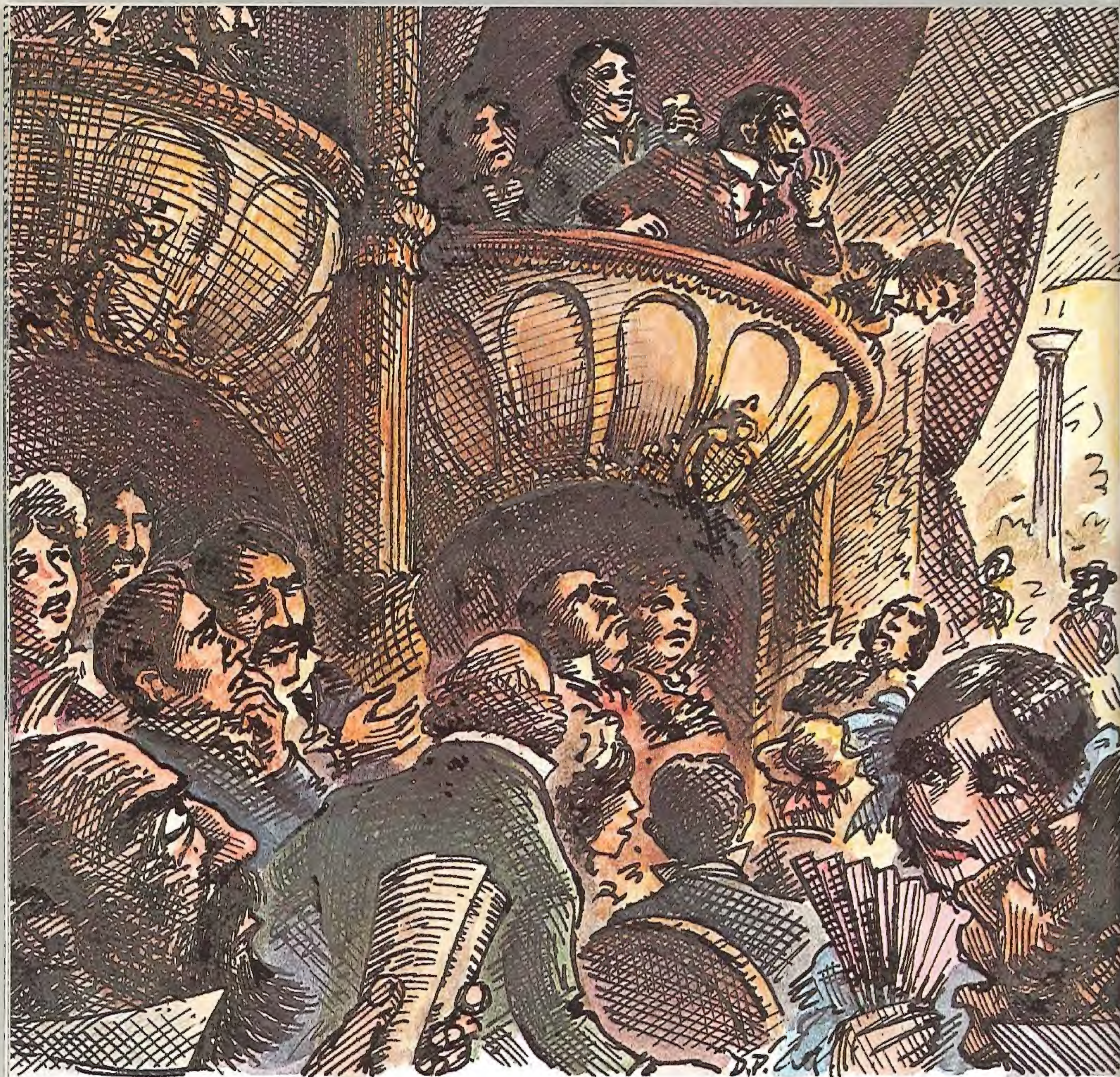
وبعدَ أن رَحَّبَتْ بي قالتُ: «كنتُ أفكرُ، يا تروت، بِعَمَلٍ لَكَ - وقد وَجَدْتُ المِهْنَةَ الَّتِي تُناسِبُكَ تمامًا، وهي مهنةٌ فريدةٌ وتُبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلٍ زاهرٍ. ستكونُ كاتبًا تحتَ التَّمرينِ عندَ أشهرِ المُحاميين.»

فقلتُ لها: «حسنًا، ولكنَّ المُشكلةَ الوحيدةَ تتعلَّقُ بِدَفْعِ مَبْلَغٍ كبيرٍ مِنَ المالِ لِقاءِ عَقْدِ التَّمرينِ.»

أجابتُ بُشي بِنبَرَةٍ حاسِمةٍ: «هذا يَتَطَلَّبُ أَلْفَ جُنَيْهِ فَقَطْ، ويُسَعِدُنِي جَدًّا أَنْ أدْفَعَهَا، فَإِنَّ سَبَبَ سَعَادَتِي وَمَوْضِعَ فَخْرِي وَاغْتِرَازِي، وليسَ لي، في هذهِ الدُّنيا ما يَسْتَحِقُّ اهْتِمَامِي سِوَاكَ خُصُوصًا وَأَنْكَ ابْنِي بِالتَّبَنِّي.»

وهكذا ذَهَبْنَا، أنا وَعَمَّتِي، في صباحِ اليومِ التالي إلى لندن، وكُلُّنا حَمَّاسٌ واندِفاعٌ. رافقتني العمَّةُ بُشي إلى مَكْتَبِ الأُسْتَاذِينَ سِينِلُو وجوركيت في مَبْنَى كبيرٍ بِالقُرْبِ مِنْ كَنِيسَةِ «سانت پول». وقد عَيَّنْتُ كَاتِبًا مُتَمَرِّنًا تحتَ إشرافِ المُحامي الأُسْتَاذِ سِينِلُو نَفْسِهِ. وَلَمْ تَكْتَفِ عَمَّتِي بِهَذَا، بَلْ اسْتَأْجَرَتْ لي شَقَّةً أُنِيقَةً في شَارِعٍ بِكَنْغهام، تُطلُّ عَلَى نَهْرِ التَّيْمَز، تحتَ إدارَةِ السَّيِّدَةِ كِرَاف. وهُنَا بَاشَرْتُ حَيَاتِي المِهْنِيَّةَ في ظُرُوفٍ مُريحَةٍ وِبدَعَمٍ مَالِيٍّ مِنْ عَمَّتِي.

بِالرُّغْمِ مِنْ اسْتِقْرَارِي فِي شَقَّتِي الجَدِيدَةِ، وَتَجْدِيدِ اتِّصَالِي بِبَعْضِ زُمَلَائِي مِنْ أَيَّامِ المَدْرَسَةِ، إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ أَشْعُرُ بِالوَحْدَةِ مِنْ حِينٍ لِآخَرٍ. فَعِنْدَمَا فَاجَأَنِي سَتِيرْفُورْت بِمَجِيئِهِ، ذَاتَ صَبَاحٍ أَثْنَاءَ الفُطُورِ، أَتَلَجَّ قَلْبِي. فَاتَّفَقْنَا عَلَى أَنْ نَلْتَقِيَ مِرَارًا. وَبَعْدَ مُرُورِ بَضْعَةِ أَيَّامٍ، دَعَوْتُهُ إِلَى العِشَاءِ فِي شَقَّتِي هُوَ وَاثْنَيْنِ مِنْ أَصْدِقَائِهِ. وَتَحَوَّلَ هَذَا العِشَاءُ إِلَى



لِقَاءِ لَنْ أَنْسَاهُ أَبَدًا وَفَاجَأَتْنَا السَّيِّدَةُ كِرَاف بِمَهَارَتِهَا فِي الطَّبْخِ وَاحْتِفَالِنَا بِالمُنَاسِبَةِ بِتَنَاوُلِ الْأَنْخَابِ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا.

عِنْدَ انْتِهَاءِ العِشَاءِ، وَكُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَتَرَنِّحُ وَأَتَمَايَلُ، اقْتَرَحَ أَحَدُنَا الذَّهَابَ لِمُشَاهَدَةِ مَسْرَحِيَّةٍ تُعْرَضُ فِي مَسْرَحِ «كوفنت غاردن». أَلْقَى بي أَصْدِقَائِي فِي العَرَبَةِ، وَمَا أَذْكُرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّنِي كُنْتُ جَالِسًا فِي مَقْصُورَةٍ فِي المَسْرَحِ أُحَدِّقُ إِلَى الْأَسْفَلِ حَيْثُ بَدَأَ لي المَشْهُدُ المَسْرَحِيُّ وَكَأَنَّهُ يَسْبَحُ فِي الضَّبَابِ. وَيَبْدُو أَنَّنِي كُنْتُ أَصْفَقُ مُحَدِّثًا ضَجَّةً لَفَتَتْ إِلَيَّ الْأَنْظَارَ وَسَبَّبتُ لي تَأْنِيًّا مِنَ الجَالِسِينَ حَوْلِي.

في وقت الاستراحة، نزلنا الدرج، بخطى متمايلة، إلى المقصورات في الطابق
الأدنى، حيث فوجئت برؤية أغنس وكفيلد بنفسها، جالسة برفقة بعض أصدقائها.
أفاقتني الصدمة قليلاً فأحسست بالخجل للظهور بحالة كهذه أمام تلك الشابة التي أكن
لها من الاحترام والإعجاب ما لا أكنه لأحد سواها.

ولكن عزيزتي أغنس لم تؤنّبني، بل أشارت عليّ، بلطف، أن أطلب من أصدقائي
مرافقتي إلى منزلي في الحال. ولا أكاد أذكر شيئاً من سائر أحداث تلك الأمسية، لكنني
أتصور أنني أعدت إلى منزلي ووضعت في فراشي.

كان اليوم التالي يوم حزن وتحسر وألم. فخرجت من نفسي، وندمت على ما سببته
للمسكينة أغنس من قلق، وظلّ الشعور بالخجل مسيطرًا عليّ أكثر من أسبوع. ثم
وصلتني رسالة من أغنس تقول فيها إنها قادمة وأبأها إلى لندن لقضاء فترة وجيزة من
الوقت، وتدعوني لزيارتها مساء الثلاثاء التالي.



كانت فرحتي فائقة برؤية ملاكي الوديع أغنس من جديد. كان حديثها رائعاً، وقد
استطاعت إزالة مخاوفي وشكوكي بمجرّد وجودها بقربي. أمسكت بيديها وقلت لها
مُفعلاً: «يا أغنس، أنت ما زلت ملاكي الحارس». فابتسمت لي وقالت: «إن كان
ذلك صحيحاً فأريد فقط أن أحذرك يا تروتوود من ملايك الطائش».

قلت مُستفهماً: «يا عزيزتي أغنس، هل تعنين ستيرفورت؟»

- أجل، هو بالضبط من أعنيه.

- لا يا أغنس! إنك تظلمينه!

- لا أعتقد أنني أظلمه، فالأدلة التي تدعم رأيي كثيرة.

لم نكمل الحديث حول هذا الموضوع، بل انتقلنا إلى مواضيع أخرى. أخبرتني،
والقلق ظاهر على مَحياها، أن أوريا هيب قد أحكم سيطرته على والدها بطريقة أو
بأخرى، وأقنعه بجعله شريكاً له في المؤسسة. فسألته مُفعلاً: «حقاً؟ هل حصل هذا
المترلف الخسيس على ذلك بتملكه وخداعه؟» فأجابت أغنس وعيناها دامعتان: «أجل.
إنه داهية ما كبر. فلا أعرف كيف توصل إلى جعل والدي يخافه وبهاؤه. أمّا في الوقت
الحاضر فأتوسّل إليك أن تتصرف معه على نحو وديّ. فكرّ بي وبوالدي».





كَانَ السَّيِّدُ مِيكُوبَر، كَعَادَتِهِ، فِي حَالَةٍ صَعْبَةٍ جَدًّا. فَمَا فَتَيَّ دَائِنُوهُ يُنْهَكُونَهُ
بِهَجْمَاتِهِمُ الْمُتَكَرِّرَةَ، وَبَاتَ لَا يَمْلِكُ مَا يُعِيلُ بِهِ أُسْرَتَهُ.

غَيْرَ أَنَّ مِزَاجَهُ تَبَدَّلَ وَاسْتَحَالَ يَأْسُهُ فَرَحًا عِنْدَمَا رَحَّبَ بِنَا لَاحِقًا فِي بَيْتِهِ الْمُتَوَاضِعِ،
وَانْكَبَّ عَلَى تَحْضِيرِ شَرَابٍ خَاصٍّ لِلْإِحْتِفَالِ بِاجْتِمَاعِنَا. فَلَمْ أَلْتَقِ قَطُّ بِشَخْصٍ يَقْرَحُ
مِثْلَهُ وَيَتَشَلُّ نَفْسَهُ مِنْ هُمُومِهِ عِنْدَمَا يُرَحِّبُ بِأَجْبَائِهِ وَيَقُومُ بِوَاجِبِ الضِّيَافَةِ نَحْوَهُمْ. أَمَّا
السَّيِّدَةُ مِيكُوبَر فَشَاطِرَتُهُ مَرَحُهُ لِأَنَّهَا كَانَتْ وَاثِقَةً تَمَامًا مِنْ قُدْرَاتِ زَوْجِهَا وَمُقْتِنَعَةً بِأَنَّ
الْعَالَمَ سَيَفِيدُ يَوْمًا مِنْ مَوَاهِبِهِ النَّادِرَةِ.

وَأَخِيرًا ذَهَبْنَا عِنْدَ الْحَادِيَةِ عَشْرَةِ. وَقَبْلَ أَنْ أَتْرُكَ صَدِيقِي الْكَرِيمَ تَرَادُلُزَ حَذَرْتُهُ مِنْ
إِقْرَاضِ السَّيِّدِ مِيكُوبَر، مَهْمَا عَرَضَ عَلَيْهِ هَذَا الْآخِرُ مِنْ وُعودٍ وَسَدَاتٍ.



بَدَلْتُ كُلَّ مَا يُوَسِّعِي لِإِرْضَاءِ أَغْنِسَ. وَإِظْهَارًا لِحُسْنِ نِيَّتِي، دَعَوْتُ أَوْرِيَا ذَاتَ مَسَاءٍ
إِلَى تَنَاوُلِ الْقَهْوَةِ فِي شَقَّتِي وَقَضَاءِ لَيْلَتِهِ عِنْدِي، قَبْلَ أَنْ يَعُودَ وَعَائِلَتُهُ وَكُفَيْلُهُ إِلَى
كَانْتَرِبُورِي. وَكَانَتْ تِلْكَ أَسْوَأَ سَهْرَةٍ قَضَيْتُهَا فِي حَيَاتِي. وَبَلَغَ انْزِعَاجِي مَبْلَغَهُ عِنْدَمَا تَفَوَّهَ
بِهَذَا الْكَلَامِ: «يَجِبُ أَنْ أَعْتَرِفَ لَكَ يَا سَيِّدُ كُوپَرْفِيلْد، أَنَّنِي، بِشَخْصِي الْمُتَوَاضِعِ، أَكِنُّ
لِأَغْنِسَ مَحَبَّةً خَالِصَةً، بَلْ إِنِّي أَعْبُدُ الْأَرْضَ الَّتِي تَمْشِي عَلَيْهَا!»

وَكَلَّفَنِي الْإِحْتِفَاطُ بِرَبَاطَةٍ جَاشِي جَهْدًا كَبِيرًا. فَأَرْدَفَ قَائِلًا: «إِنَّهَا تُجِلُّ أَبَاهَا، فَامْلُ
أَنْ تُلَاطِفَنِي إِكْرَامًا لَهُ.»

لَقَدْ أَفْصَحَ اللَّئِيمُ عَنْ خُطْبَتِهِ بِكُلِّ وَقَاحَةٍ: كَانَ عَازِمًا عَلَى الْفُوزِ بِالشَّرِكَةِ وَبِيَدِ أَغْنِسَ
أَيْضًا! وَفِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي سَعَيْتُ إِلَى التَّخَلُّصِ مِنْهُ بِاِكْرَامٍ.

دَعَانِي رَبُّ عَمَلِي السَّيِّدُ سِينْلُو، فِي الصَّيْفِ، إِلَى مَتَرِلِهِ الرَّيْفِيِّ، لِقَضَاءِ عُطْلَةٍ نِهَائِيَّةِ
الْأُسْبُوعِ. وَهُنَاكَ التَّقَيْتُ بِفُرْصَةِ عُمْرِي فِي شَخْصِ ابْنَتِهِ دُورَا الَّتِي خَلَبْتُ لُبِّي بِجَمَالِهَا.
وَأَدْرَكْتُ عَلَى الْفُورِ أَنَّهَا حُبُّ الْعُمْرِ. فَالْتَزَمْتُ فِي الْحَدِيقَةِ بِرِفْقَتِهَا كَانَتْ بِالنَّسْبَةِ لِي
نُزْهَةً فِي النَّعِيمِ. بَعْدَ ذَلِكَ، عِشْتُ مَذْهُولًا مُدَّةَ أَسَابِيحٍ حَتَّى أُرْسِلْتُ لِي الْعِنَايَةُ الْإِلَهِيَّةُ
صَدِيقِي الْعَزِيزِ تَرَادُلُزَ وَعَائِلَتَهُ مِيكُوبَر، فَصَرَفْتُ ذَهْنِي قَلِيلًا عَنْ ذَلِكَ الْحُبِّ الْجَارِفِ.

عِنْدَمَا بَلَغْتُ شَقَّتِي ، وَجَدْتُ سَتِيرْفُورْتْ بِانْتِظَارِي ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَأَخُّرِ السَّاعَةِ ،
فَهْتَفْتُ : « يَا لَهَا مِنْ مُفَاجَأَةٍ ! حَسِبْتُ أَنَّكَ لَمْ تَرَلْ فِي أوكسفورد. »

فَقَالَ : « لا . إِنِّي قَادِمٌ لِلتَّوَّ مِنْ يَارْمُوثِ حَيْثُ كُنْتُ أَقُومُ بِرِحَالَاتِ بَحْرِيَّةٍ فِي مَرْكَبِي .
إِنَّ بَارْكِيْسَ الْمَسْكِينِ فِي حَالَةٍ يُرْتَى لَهَا ، وَيَبْدُو أَنَّهُ فِي أَيَّامِهِ الْأَخِيرَةِ . » ثُمَّ تَحَدَّثْنَا قَلِيلًا ،
وَقَبْلَ أَنْ يُغَادِرَ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى كَتِفِي قَائِلًا : « إِذَا فَرَّقَتْ بَيْنَنَا الْأَيَّامُ ، يَا كُوبِرْفِيلْدُ ، فَعَلَيْكَ
أَنْ تَتَذَكَّرَ جَانِبِي الْمَشْرِقَ . » وَأَرَبَكْنِي كَلَامُهُ فَقُلْتُ : « وَلَكِنِّي دَائِمًا أَنْظُرُ إِلَيْكَ هَكَذَا ! »
فَاجَابَ : « بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ، وَطَابَتْ لَيْلَتُكَ ! »

اسْتَأْذَنْتُ السَّيِّدَ سِينْلُوَ لِلْحُصُولِ عَلَى إِجَازَةٍ قَصِيرَةٍ لِلذَّهَابِ إِلَى يَارْمُوثِ . وَتَأَثَّرْتُ
بِغُيُوتِي بِرُؤْيَايَ وَضَمَّتْنِي إِلَى صَدْرِهَا بِأَكْيَةٍ وَشَكَرْتَنِي عَلَى مُوَاسَاتِهَا .
ثُمَّ قَادَتْنِي إِلَى غُرْفَةِ بَارْكِيْسَ . وَتَبَيَّنَ لِي أَنَّهُ - لِلْأَسَفِ - قَدْ أَشْرَفَ عَلَى الْهَلَاكِ .
سَأَلْتُهُ بِغُيُوتِي : « هَا قَدْ أَتَى السَّيِّدُ دِيْقِيدُ . أَلَنْ تُكَلِّمَهُ يَا حَبِيبِي ؟ »

إِلَّا أَنَّ بَارْكِيْسَ الْمَسْكِينِ لَمْ يُحَرِّكْ سَاكِنًا لِأَنَّهُ كَانَ عَاجِزًا عَنِ الْكَلَامِ وَالْحَرَكَةِ .
فَبَدَا وَكَأَنَّ الْحَيَاةَ تُفَارِقُهُ شَيْئًا فَشَيْئًا عَلَى غِرَارِ مِيَاهِ الْبَحْرِ الَّتِي تَسْجِبُ مِنَ الشَّاطِئِ عِنْدَ
الْجَزْرِ . وَفَجْأَةً أَخَذَ يُتِمِّمُ كَلَامًا غَيْرَ مُتَسِقٍ ثُمَّ ابْتَسَمَ وَهَمَسَ : « بَارْكِيْسَ رَاغِبٌ حَقًّا . »
وَكَانَتْ تِلْكَ كَلِمَاتِهِ الْأَخِيرَةَ .

بَعْدَ الْجَنَازَةِ ، أَخَذْتُ بِغُيُوتِي إِلَى مَنْزِلِ أَخِيهَا عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ حَيْثُ أُحِيطَتْ بِمَحَبَّةٍ
وَعُطْفٍ سَاعِدَاهَا عَلَى تَحْمُلِ فَاجِعَتِهَا . وَعِنْدَ الْغَسَقِ جَاءَ هَامٌ إِلَى الْمَنْزِلِ ، وَلَمَّا رَأَى
قَالَ : « يَا سَيِّدُ دِيْقِيدُ ، هَلَّا خَرَجْتَ مَعِيَ لَحْظَةً ؟ » ، وَكَانَ مَشْدُودَ الْأَعْصَابِ وَشَاحِبَ
الْلَّوْنِ كَأَنَّهُ شَبَحٌ . مَا إِنْ خَرَجْنَا مِنَ الْبَيْتِ حَتَّى خَارَتْ قُوَاهُ وَقَالَ وَهُوَ يَنْشَجُ : « إِمِيلِي قَدْ
رَحَلَتْ ... عَزِيزَتِي الصَّغِيرَةُ إِمِيلِي رَحَلَتْ ! »

فَسَأَلْتُهُ مُتَعَجِّبًا : « تَقُولُ إِنَّهَا رَحَلَتْ ؟ »

فَاجَابَ : « أَجَلْ . لَقَدْ فَرَّتْ مِنَ الْبَيْتِ وَتَرَكَتْ هَذِهِ الرَّسَالَةَ . »





دَخَلْتُ الْبَيْتَ وَرُحْتُ أَقْرَأُ الرِّسَالَةَ. وَقَدْ جَاءَ فِيهَا مَا يَلِي :

«أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكَ تُحِبُّنِي كَثِيرًا. عِنْدَمَا تَقْرَأُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ سَأَكُونُ بَعِيدَةً، وَلَنْ أَعُودَ إِلَّا إِذَا أَعَادَنِي هُوَ بِصِفَتِي سَيِّدَةً مُحْتَرَمَةً. بَلِّغْ خَالِي أَنِّي مَا أَحَبَبُّهُ قَطُّ مِثْلَمَا أَحَبُّهُ الْيَوْمَ. بَارَكْكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا : سَأُصَلِّي مِنْ أَجْلِكُمْ.»

كَانَ وَقْعُ الرِّسَالَةِ عَلَيْنَا كَالصَّاعِقَةِ.

وَسَأَلَ السَّيِّدُ بِيغُوتِي بِصَوْتٍ مُتَهَدِّجٍ : «مَنْ هُوَ الرَّجُلُ؟» فَقَالَ هَامُ وَالذُّمُوعُ تَكَادُ تَخْنُقُهُ : «إِنَّهُ صَدِيقُكَ سَتِيرْفُورْتُ يَا سَيِّدُ دِثِيدُ، لَكِنِّي لَا أَلُومُكَ !»

وَتَنَاوَلَ الْعَمُّ بِيغُوتِي قُبْعَتَهُ وَقَالَ : «سَأَبْحَثُ عَنْ إِمِيلِي، وَلَكِنْ قَبْلَ ذَلِكَ، سَأَحْطِمُ مَرْكَبَهُ. سَأَجُولُ الْأَرْضَ بَحْثًا عَنْهَا، إِذَا لَزِمَ الْأَمْرُ ! آه ! يَا صَغِيرَتِي إِمِيلِي !» وَخَرَجَ وَحْدَهُ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ.

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، التَّقَيْتُ بِالسَّيِّدِ بِيغُوتِي وَأُخْتِهِ عَلَى الشَّاطِئِ. كَانَ قَدْ اتَّخَذَ قَرَارًا حَاسِمًا، بَعْدَ أَنْ تَشَاوَرَ وَأُخْتَهُ طَوَالَ اللَّيْلِ، فَظَهَرَتْ عَلَامَاتُ الْعَزَمِ عَلَى مُحْيَاهُ. قَالَ : «لَمْ يَعْذِلِي مِنْ عَمَلٍ فِي الْبَيْتِ. وَمِنْ الْآنَ فَصَاعِدًا بَاتَ وَاجِبِي أَنْ أَبْحَثَ عَنْهَا.» وَعِنْدَمَا سَأَلْتُهُ أَيْنَ سَيَبْحَثُ عَنْهَا هَزَّ بِرَأْسِهِ تَعْبِيرًا عَنْ حَيْرَتِهِ، لَكِنَّهُ قَالَ لِي : «لَقَدْ خَطَرَ بِيَالِي أَنْ أُرَافِقَكَ إِلَى لُنْدُنَ فِي الْغَدِ. مَا رَأَيْتُكَ يَا سَيِّدُ دِثِي؟»

لَقَدْ سَرَّنِي أَنْ أَسَاعِدَ صَدِيقِي وَأُوَاسِيَهُ فِي مُحِنتِهِ، فَانْطَلَقْنَا مَعًا فِي الصَّبَاحِ. وَعِنْدَمَا بَلَّغْنَا لُنْدُنَ بَدَأَ لِي أَهْدًا بِكَثِيرٍ وَأَصْرَّ عَلَى الْبَدْءِ بِإِجْرَاءِ أبحاثِهِ بِمُفْرَدِهِ. ثُمَّ أَمْسَكَ بِيَدِي وَقَالَ : «مَهْمَا حَصَلَ، يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ إِمِيلِي أَنَّ شُعُورِي تِجَاهَهَا لَمْ يَتَبَدَّلْ، فَقَدْ غَفَرْتُ لَهَا. كُلُّ مَا أُرِيدُهُ هُوَ أَنْ تَعُودَ إِلَى الْبَيْتِ.»

وَاسْتَوَلَتْ تِلْكَ الْحَوَادِثُ الْمَرِيرَةُ عَلَى أَفْكَارِي لِمُدَّةٍ أَسَابِيعَ. إِلَّا أَنَّ الْحَيَاةَ مَا لَبِثَتْ أَنْ عَادَتْ إِلَى مَجْرَاهَا الطَّبِيعِيِّ. كَانَ حَبِّي لِدُورَا يَزْدَادُ وَيَعْمُقُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَبَلَغَ فَرَحِي ذُرْوَتَهُ عِنْدَمَا دَعَانِي السَّيِّدُ سِينْلُو إِلَى حَفْلَةِ عِيدِ مِيلَادِهَا. وَتَعَرَّفْتُ بِالْمُنَاسَبَةِ إِلَى صَدِيقَةٍ دُورَا الْحَمِيمَةِ جُولِيَا مِيلزَ الَّتِي أَخْبَرْتَنِي أَنَّ دُورَا كَانَتْ سَتَمَكْتُ عَنْهَا مُدَّةَ أُسْبُوعٍ. وَدَعَتْنِي لِزِيَارَتِهَا كَيْ أَتِمَكَّنَ مِنْ قَضَاءِ بَعْضِ الْوَقْتِ مَعَ دُورَا. فَمَا كِدْتُ أَصْدُقُ أَذُنِي لِشِدَّةِ فَرَحِي، وَرُحْتُ أَزُورُهَا يَوْمِيًّا.

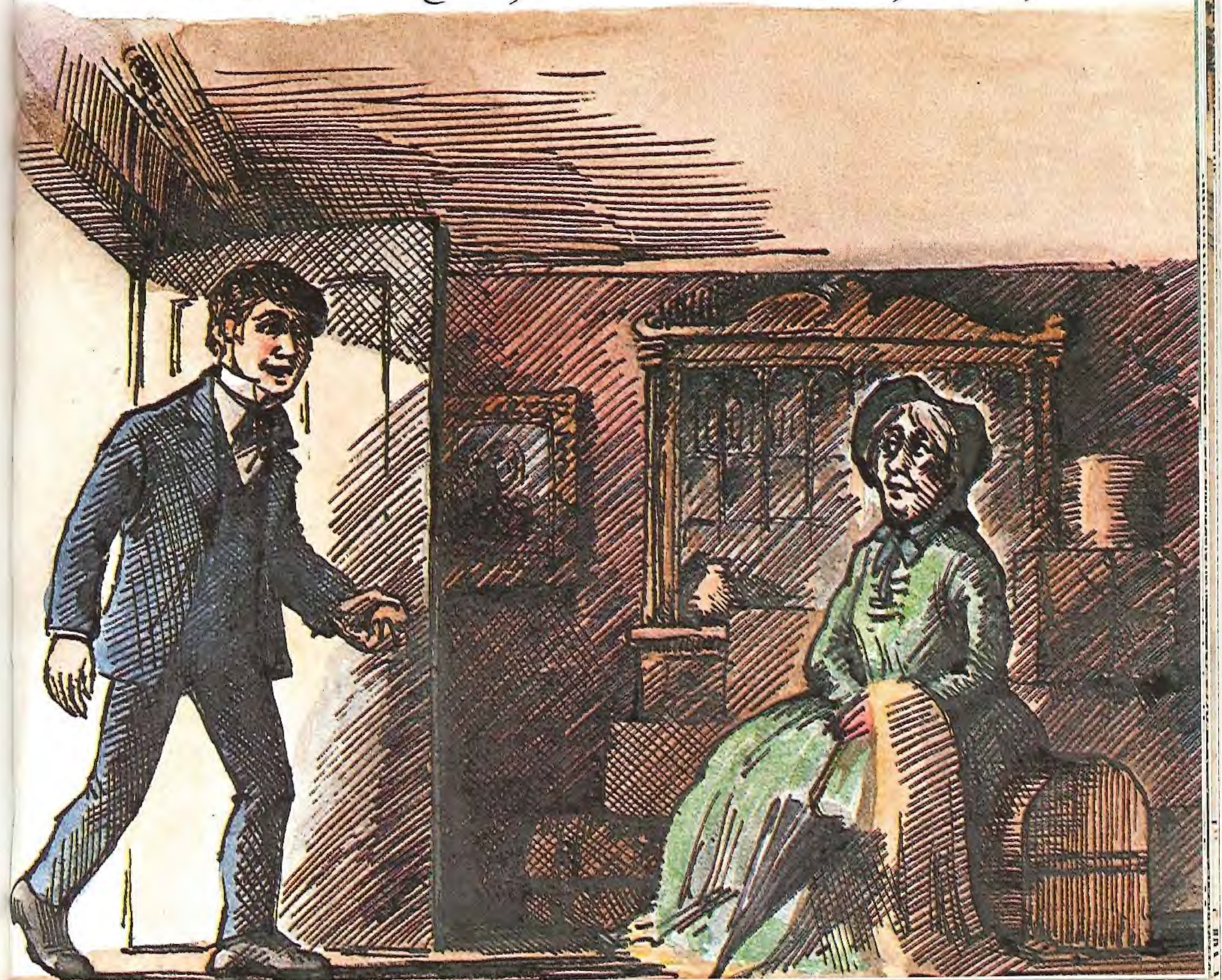
وَقَبْلَ نِهَآيَةِ الْأُسْبُوعِ، تَسَلَّخْتُ بِكُلِّ شَجَاعَتِي، وَطَلَبْتُ يَدَ جَمِيلَتِي دُورَا، وَأَخْبَرْتُهَا أَنِّي لَا أَطِيقُ الْعَيْشَ مِنْ دُونِهَا. وَافَقَتْ دُورَا عَلَى عَرْضِي بِسُرُورٍ بِالِغِ، وَاتَّفَقْنَا - سِرًّا - عَلَى الزَّوَاجِ. فَغَمَرَنِي الْفَرَحُ الْعَارِمُ.

عِنْدَمَا بَلَغْتُ شَقَّتِي ، فِي ذَلِكَ الْمَسَاءِ ، وَجَدْتُ عَمَّتِي بِتْسِي تروتوود مُتْرَبَّةً عَلَى صَنَادِيقٍ مُكَدَّسَةٍ فِي قَاعَةِ الْجُلُوسِ . وَلَمَّا لَاحَظْتُ دَهْشَتِي قَالَتْ : « عَلَيْكَ ، يَا تروت ، أَنْ تَتَحَلَّى بِالشَّجَاعَةِ وَالْعَزَمِ . »

أَخَذْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا فِي حَيْرَةٍ وَارْتِبَالٍ ، فَأَرَدْتُ : « لِأَيِّ سَبَبٍ تَظُنِّي جَالِسَةً عَلَى هَذِهِ الصَّنَادِيقِ ؟ » فَأَجَبَتْهَا : « لَا أَعْرِفُ . »

فَقَالَتْ : « هَذِهِ الصَّنَادِيقُ هِيَ كُلُّ مَا بَقِيَ لِي . إِنِّي مُفْلِسَةٌ ، يَا عَزِيزِي . لَقَدْ نَفِدَتْ أَمْوَالِي إِلَى آخِرِ قِرْشٍ . »

فَلَمْ أُحَرِّكْ سَاكِناً وَتَسَاءَلْتُ فِي حَيْرَتِي عَمَّا جَرَى . وَتَابَعَتْ عَمَّتِي قَائِلَةً : « عَلَيْنَا أَنْ نُوَاجِهَ مَشَاكِلَنَا بِشَجَاعَةٍ ، يَا تروت ، فَنَحْنُ الْاِثْنَيْنِ نَسْتَطِيعُ أَنْ نَتَغَلَّبَ عَلَيْهَا مَعاً . »



فَكَّرْتُ - طَوَالَ تِلْكَ اللَّيْلَةِ - فِي وَضْعِنَا الْجَدِيدِ الْبَائِسِ ، وَبَدَأَ جَلِيًّا أَنَّ عَمَّتِي لَنْ تُعِيلَنِي بَعْدَ الْآنَ ، فَفَقَّرْتُ أَنَّ أَطَالَبَ السَّيِّدَيْنِ سِينِلُو وَجورِكْتِر بِالْأَلْفِ جُنَيْهِ الَّتِي دَفَعْتُهَا لَهُمَا عَمَّتِي لِقاءَ تَدْرِيبِي الْمِهْنِيِّ . وَلِلْأَسَفِ رُفِضَ طَلْبِي عَلَى الْفَوْرِ إِلَّا أَنَّنِي كُنْتُ مُصَمِّمًا عَلَى تَرْكِ الشَّرِكَةِ .

قَبْلَ ظَهْرِ الْيَوْمِ التَّالِي ، ذَهَبْتُ وَعَمَّتِي إِلَى بَيْتِ أَعْنِسَ لِزِيَارَتِهَا ، وَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى كَانْتَرِبوري عِنْدَ الظُّهَيْرَةِ . وَأَنَارَ قَلَقُنَا أَنَّ نَرَاهَا حَزِينَةً مُضْطَرَبَةً . قَالَتْ : « آه يَا صَدِيقِي تروتوود ، أَنَا وَأَبِي نُوَاجِهُ مَشَاكِلَ عَصِيَّةٍ . لَقَدْ أَصْبَحَ أوريَّا هِيبَ شَرِيكًا فِي الْمَوْسَسَةِ ، وَنَقَلَ مَقَرَّ إِقَامَتِهِ إِلَى هُنَا هُوَ وَوَالِدَتُهُ . وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ أوريَّا هِيبَ سَيَحُولُ ، أَكْثَرَ فَكْثَرَ ، بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي . إِنَّهُ - لِلْأَسَفِ - قَدْ أَحْكَمَ سَيْطَرَتَهُ عَلَى وَالِدِي . »

كَانَ وَقَعُ تِلْكَ الْأَخْبَارِ الْمُقْلِقَةِ شَدِيدًا عَلَيَّ وَعَلَى عَمَّتِي . إِلَّا أَنَّ أَعْنِسَ مَا لَبِثَ أَنْ صَرَفَتْ نَظَرَهَا عَنْ مَشَاكِلِهَا وَوَجَّهَتْ اهْتِمَامَهَا إِلَى الْمُصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِي وَبِعَمَّتِي . وَفِي غُضُونِ أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ سَاعَةً وَجَدْتُ لِي صَدِيقَتِي الْعَزِيزَةَ عَمَلًا جُزْئِيًّا مُؤَقَّتًا مَعَ الدُّكْتُورِ سَتْرُونِغِ الْعَجُوزِ . فَقَدْ تَقَاعَدَ مِنْ عَمَلِهِ كَمُدِيرٍ لِلْمَدْرَسَةِ وَاسْتَقَرَّ فِي لَنْدَنَ حَيْثُ وَجَدَ نَفْسَهُ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يُسَاعِدُهُ فِي بَحْثٍ كَانَ قَدْ بَاشَرَهُ .

وَبَعْدَ مُرُورِ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ فُوجِئْتُ بِرِسَالَةٍ مِنَ السَّيِّدِ مِيكُوبِر تُفِيدُ أَنَّ فُرْصَةَ عَمَلٍ وَاعِدَةً قَدْ فُتِحَتْ أَمَامَهُ أَخِيرًا ، فَقَدْ دَعَاهُ أوريَّا هِيبَ إِلَى كَانْتَرِبوري لِیُسَاعِدَهُ فِي إِدَارَةِ أَعْمَالِ السَّيِّدِ وَكُفَيْلِدِ . وَفَكَّرْتُ فَوْرًا أَنَّ هَذَا يُنْدِرُ بِتَطَوُّرَاتٍ مُرْجِجَةٍ .

وَأَثْنَاءَ ذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ أُطْلِعْ دُورًا عَلَى الْوَضْعِ الْمَالِيِّ الْعَصِيبِ لِعَمَّتِي لِئَلَّا أَقْلِقَهَا . لَكِنَّ الْحَقِيقَةَ زَلَقْتُ مِنِّي ذَاتَ لَيْلَةٍ ، إِذْ اعْتَقَدْتُ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ أُصَارِحَهَا بِشَجَاعَةٍ وَثَقَةٍ ، فَأَطْلَعْتُهَا عَلَى الْكَارِثَةِ الْمَالِيَّةِ الَّتِي حَلَّتْ بِعَمَّتِي وَالَّتِي اضْطَرَّتْنِي إِلَى الْاِتِّكَالِ عَلَى نَفْسِي . لَمْ تَتَحَمَّلِ الْمَسْكِينَةُ هَذَا الْخَبَرَ ، فَأَجْهَشَتْ بِالْبُكَاءِ . حَاوَلْتُ بِكُلِّ بَلَاهَةٍ ، أَنْ أُثِيرَ اهْتِمَامَهَا بِالطَّبْخِ وَبِشُؤْنِ الْمَتَرَلِ . وَوَعَدْتُنِي بِأَنَّهَا سَتَبْدُلُ جُهْدَهَا وَتَوْصَلْتُ إِلَى إِقْنَاعِ صَدِيقَتِهَا جُولِيَا مِيلَرُ بِتَشْجِيعِهَا عَلَى الْاهْتِمَامِ بِهَذِهِ الْأُمُورِ .

فُوجِئَتْ ذاتَ يَوْمٍ ، بِخَبَرِ وَفَاةِ السَّيِّدِ سِينَلُو إِثْرَ سُقُوطِهِ مِنْ عَرَبِيَّتِهِ . لَقَدْ سَحَقَتْ هَذِهِ
الْفَاجِعَةُ الْمُسْكِينَةَ دُورًا سَحَقًا ، فَبَكَتْ وَبَكَتْ أَبَاهَا الْعَزِيزَ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ - وَبَدَتْ وَكَانَهَا
لَا تَسْتَطِيعُ الْكَفَّ عَنْ التَّفَكِيرِ بِوَفَاتِهِ الْأَلِيمَةِ . وَانْتَابَنِي الْقَلْقُ عَلَى مُسْتَقْبَلِنَا بَعْدَ أَنْ اتَّضَحَ لِي
أَنَّ وَالِدَهَا لَمْ يُخَلِّفْ لَهَا شَيْئًا يُذَكِّرُ ، وَكُنْتُ أَشْكُ فِي قُدْرَتِي عَلَى إِعَالَةِ زَوْجَةٍ .

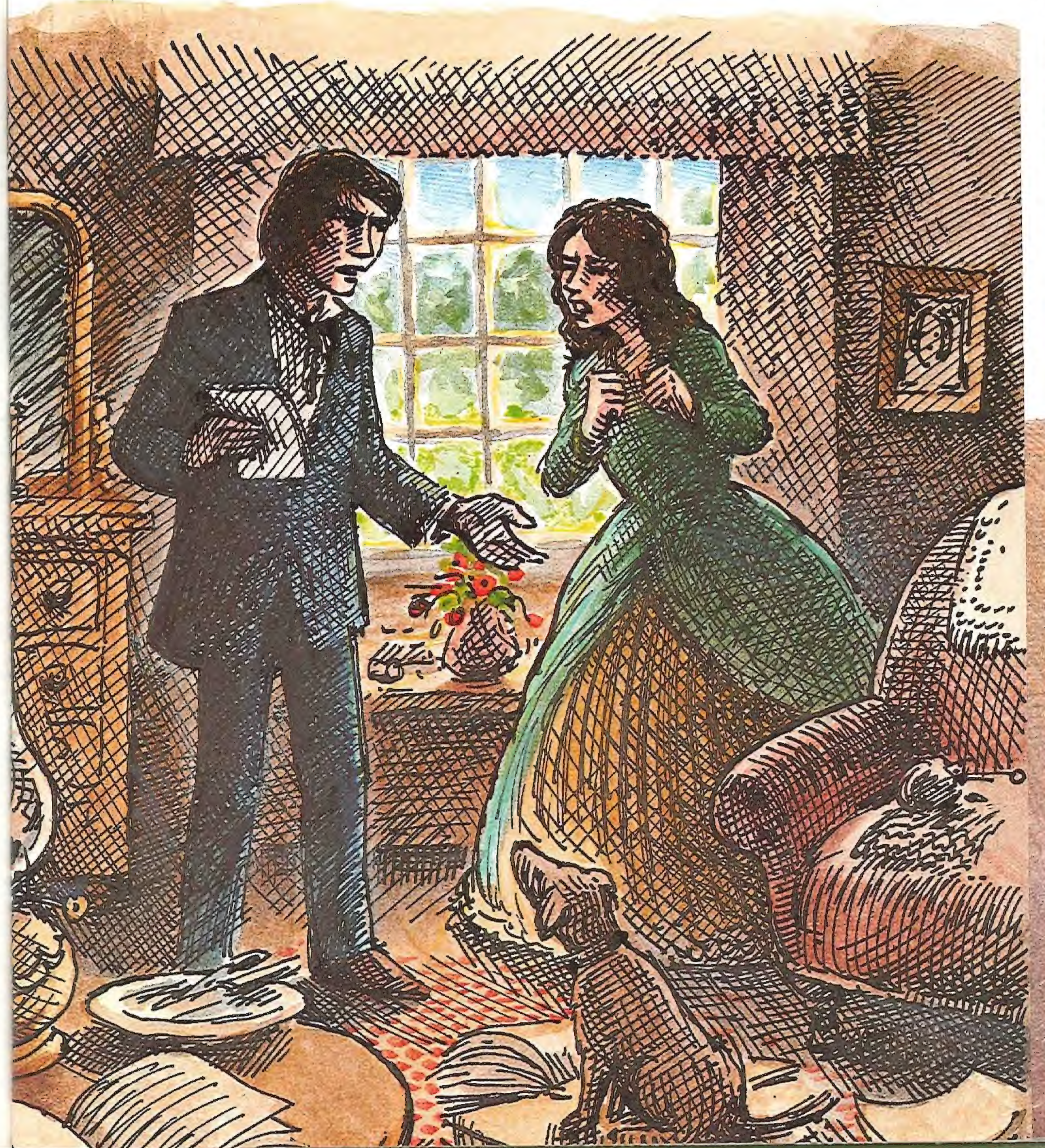
لَجَأْتُ إِلَى تَرَادُلِ ، كَعَادَتِي كُلَّمَا احْتَجْتُ إِلَى نَصِيحَةٍ ، فَتَعَهَّدَ تَعْلِيمِي الْإِخْتِرَالِ ، مِمَّا
يُوهِّلُنِي لِزِيَادَةِ دَخْلِي بِالْعَمَلِ كَمُرَاسِلٍ صَحْفِيٍّ لِلشُّؤُونِ الْبِرْلَمَانِيَّةِ . وَكَانَ هَذَا الْمَشْرُوعُ
عَامِلًا فِي تَغْيِيرِ مَجْرَى حَيَاتِي . فَسَرَّعَانَ مَا اكْتَشَفْتُ فِيَّ مَوْهَبَةَ الْكِتَابَةِ . وَفِي غُضُونِ السَّنَةِ
التَّالِيَةِ نَشَرْتُ أَوَّلَ رِوَايَةٍ وَجَنَيْتُ مِنَ الْأَرْبَاحِ مَا جَعَلَنِي قَادِرًا عَلَى تَحْمِلِ أَعْبَاءِ الزَّوْاجِ .
طَالَمَا اعْتَدْتُ أَنَّ أَفْكُرَ فِي أَغْنَسِ كُلَّمَا وَاجَهْتُ الْمَشَاكِلَ ، فَأَخَذْتُ عَرَبَةً أَوْصَلَتْنِي
بَاكِرًا إِلَى كَانْتَرِبُورِي . وَهُنَاكَ وَجَدْتُ السَّيِّدَ مِيكُوبِرَ مُسْتَقِرًّا فِي وَظِيفَتِهِ الْجَدِيدَةِ فِي مَكْتَبِ
السَّيِّدِ وَكْفَيْلِد . وَاتَّضَحَ لِي أَنَّهُ بَدَأَ يَنْقَادُ لِأُورِيَا هِيْب ، فَبَدَأَ مُرَاوِغًا مُتَهَرِّبًا .

وَيَيْنَمَا كُنَّا عَلَى الْعِشَاءِ فِي مَتَرِلِ وَكْفَيْلِد ، ذَلِكَ الْمَسَاءَ ، تَجَرَّأَ أُورِيَا هِيْبَ عَلَى شُرْبِ
نَخْبِ أَغْنَسِ قَائِلًا : «بِصِحَّةٍ أَجْمَلِ سَيِّدَةٍ فِي بِلَادِنَا .» ثُمَّ التَّفَتَ نَحْوَ السَّيِّدِ وَكْفَيْلِدِ
وَأَرْدَفَ : «أَنْ يَكُونَ امْرُؤُ وَالِدِ أَغْنَسِ وَكْفَيْلِدِ فَهَذَا مَوْضِعُ افْتِخَارٍ ، فَمَاذَا يَقُولُ الْمَرْءُ
الَّذِي سَيُصْبِحُ زَوْجًا لَهَا؟»

لَمْ أَسْمَعْ ، فِي حَيَاتِي ، صَرِيحَةً كَتَلَكَ الَّتِي صَدَرَتْ عَنْ وَالِدِ أَغْنَسِ إِثْرَ تَفَوُّهِ أُورِيَا
هِيْبَ بِكَلَامِهِ الْخَبِيثِ . فَقَدْ أَشَارَ بِإَصْبَعِهِ إِلَى أُورِيَا وَهُوَ يَصِيحُ مِنْ شِدَّةِ كَرَبِهِ : «أَيُّهَا
الْوَحْشُ الْخَسِيسُ ! بِسَبِّكَ تَنَازَلْتُ تَدْرِيجًا عَنْ سُمْعَتِي وَرَاحَةٍ بَالِي ، ثُمَّ عَنْ مُؤَسَّسَتِي
وَبَيْتِي . لَكِنِّي لَنْ أَسْلَمَكَ ابْنَتِي أَبَدًا .» ثُمَّ ارْتَمَى الْعَجُوزُ الْمُسْكِينُ عَلَى مَقْعَدٍ وَأَخَذَ يَبْكِي .
يَيْنَمَا كُنْتُ أَتَاهَبُ لِلرَّحِيلِ ، فِي وَقْتٍ لَاحِقٍ ، تَسَلَّلَ أُورِيَا نَحْوِي وَقَالَ بِصَوْتٍ
مُنْخَفِضٍ أَشْبَهَ بِنَقِيقِ الضَّفَادِعِ : «أَظُنُّ أَنَّ الْإِنْسَانَ أَحْيَانًا يَقْطِفُ التُّفَّاحَ عَنْ الشَّجَرَةِ قَبْلَ
نُضْجِهِ ، لَكِنَّ السَّاعَةَ سَتَأْتِي فِي حِينِهَا ، وَسَأَنْتَظِرُ .»



كَانَ مِنَ الطَّبِيعِيِّ، فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ، أَنْ أَتَرَدَّدَ عَلَى دُورَا. وَأَزْعَجَنِي طَرِيقَةُ النَّاسِ فِي مُعَامَلَتِهَا كَأَنَّهَا دُمِيَّةٌ صَغِيرَةٌ، فَلَمْ يَرَوْا فِيهَا امْرَأَةً بَلْ طِفْلاً لَعُوبًا، حَتَّى عَمَّتِي كَانَتْ تَدْعُوهَا «الزَّهْرَةَ الصَّغِيرَةَ». وَعَمَدْتُ إِلَى مُفَاتِحَةِ دُورَا بِالْمَوْضُوعِ، لَكِنَّهَا تَكَدَّرَتْ وَقَالَتْ: «أَرَى أَنَّكَ سَتَغْضَبُ مِنِّي.»



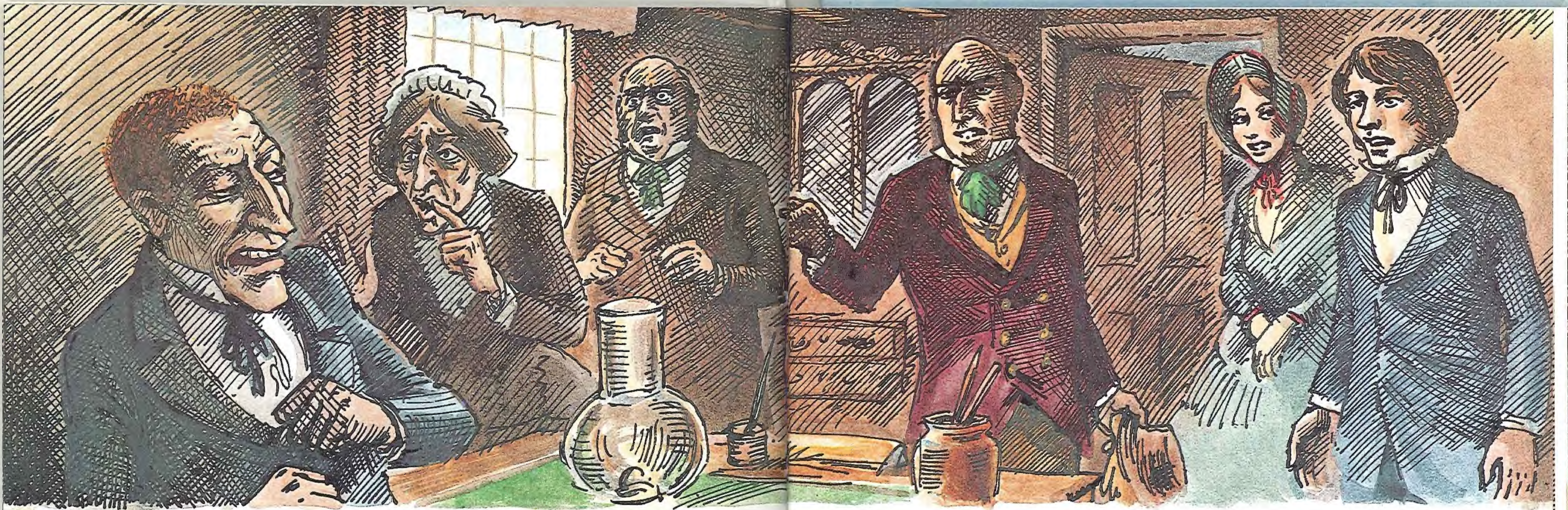
أَجَبْتُ: «يَا حَبِيبَتِي، بَلْ كُلُّ مَا أُرِيدُهُ هُوَ مُسَاعَدَتُكَ عَلَى أَنْ تُصْبِحِي زَوْجَةً صَالِحَةً وَرَبَّةَ مَنَزَلٍ نَاجِحَةً.»

وَتَوَصَّلْتُ إِلَى إِقْنَاعِهَا بِقِرَاءَةِ بَعْضِ الْكُتُبِ الَّتِي اشْتَرَيْتُهَا لَهَا حَوْلَ فَنِّ الطَّبِخِ وَتَدْبِيرِ النِّفَقَاتِ الْمَنَزَلِيَّةِ. لَكِنَّهَا لَمْ تَلَبِّثْ أَنْ كَفَّتْ عَنْ جُهْدِهَا وَرَمَتْ كُتُبَهَا فِي زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَا الْبَيْتِ حَيْثُ تَبَعَثَرْتُ وَتَمَزَّقْتُ. إِلَّا أَنَّنِي ظَلَلْتُ مُتَمِّمًا بِهَا، فَقَرَّرْنَا أَنْ نَتَزَوَّجَ. وَأَقَمْتُ مَعَ زَوْجَتِي الطِّفْلَةَ الْبَرِيَّةَ فِي كُوخٍ صَغِيرٍ جَمِيلٍ، وَاعْتَقَدْنَا أَنَّنَا أَسْعَدُ زَوْجَيْنِ فِي الْعَالَمِ. لَكِنَّ قُصُورَ زَوْجَتِي النَّامِّ فِي تَدْبِيرِ شُؤْنِ مَنَزَلِنَا ظَهَرَ بِوُضُوحٍ. فَهِيَ لَمْ تُجِدْ تَنْظِيمَ طَعَامِنَا، وَلَا ابْتِياعَ حَاجَاتِنَا، وَلَا الإِشْرَافَ عَلَى خَدَمِنَا الَّذِينَ فَقَدُوا اخْتِرَامَهُمْ لَهَا وَرَاحُوا يَسْرِقُونَ الثِّيَابَ وَغَيْرَهَا مِنْ أَغْرَاضِ الْبَيْتِ، حَتَّى إِنَّهُمْ كَادُوا يُفْسِدُونَ حَيَاتَنَا الزَّوْجِيَّةَ.

فِي السَّنَةِ الثَّالِيَةِ بَدَأَ مَا سَبَّبَتْهُ تِلْكَ الْهُمُومُ مِنْ تَوَثُّرٍ يُحْدِثُ أَثَرًا ظَاهِرًا عَلَى صِحَّةِ زَوْجَتِي الْعَزِيزَةِ. فَخَبَا نَشَاطُهَا وَوَهْنَتْ حَتَّى آلَ بِهَا الْحَالُ إِلَى أَنْ تَلَزَمَ الْفِرَاشَ حَيْثُ أَخَذَتْ تَدُوبُ شَيْئًا فَشَيْئًا. وَفِيمَا كَانَتْ حَالَتُهَا تَتَدَهَوَّرُ، بَقِيَتْ أَغْنَسُ بِجَانِبِنَا لِتُؤَاسِينَا فِي مِحْنَتِنَا. وَانْطَفَأَتْ دُورَا بِسُرْعَةٍ مُدْهِلَةٍ، فَانْهَارَ الْعَالَمُ مِنْ حَوْلِي، وَغَمَرَتْنِي الْكَآبَةُ، وَاكْتَفَنِي الْحُزْنُ.

وَهَا قَدْ أَعَادَتْنِي إِلَى شُؤْنِ الْحَيَاةِ وَشُجُونِهَا رِسَالَةٌ مِنَ السَّيِّدِ مِكُوبَرٍ، يَدْعُونِي فِيهَا إِلَى الْاجْتِمَاعِ بِهِ فِي مَكْتَبِ السَّيِّدِ وَكُفَيْلِد. فَلَبِيتُ دَعْوَتَهُ وَذَهَبْتُ مَعَ عَمَّتِي لِأُقَابِلَهُ. وَإِذَا بِنَا نَجِدُ تَرَادُلْزَ وَعَزِيزَتِي أَغْنَسَ وَأُورِيَّا هَيْبَ وَوَالِدَتَهُ بَانْتِظَارِنَا.

وَكَمْ فَرَحْتُ بِرُؤْيَا صَدِيقِي الدَّائِمِ تَرَادُلْزَ! فَقَدْ كَانَ صَدِيقًا حَقِيقِيًّا وَمُخْلِصًا مِنَ النَّوعِ النَّادِرِ. وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الْجُهْدِ الْمُضْنِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَبْذُلُهَا كَيْ يَتَعَلَّمَ مِهْنَةَ الْمُحَامَاةِ فَإِنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّ يَوْمًا عَنِّي وَعَنِ الْمَسْكِينَةِ دُورَا. وَبَعْدَ وَفَاتِهَا، تَوَلَّى عَزَائِي وَخَفَّفَ مِنْ لَوْعَتِي. إِنَّهُ يُجَسِّدُ مَعْنَى الصَّدَاقَةِ الْحَقِيقِيَّةِ.



بدا لي هيب مُشغِلَ البالِ ، فَقَدْ أَثَارَ رَيْبَتَهُ لِقَاؤُنَا الْفَجَائِيَّ . فَطَلَبَ مِنَ السَّيِّدِ مِيكُوبِر
أَنْ يَتْرُكَنَا لِتَحَدَّثَ . إِلَّا أَنَّ مِيكُوبِرَ رَفَضَ طَلْبَهُ ، وَانْتَصَبَ وَاقِفًا وَرَاحَ يَتَهَمُ أَوْرِيَا هِيْبَ
بِالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ ، شَارِحًا لَنَا كَيْفَ أَنَّهُ أَكْرَهَهُ عَلَى تَرْوِيرِ السَّجَلَاتِ ، وَعَلَى التَّوَاتُؤِ مَعَهُ
فِي اخْتِلَاسِ وَدَائِعِ عَهْدِ بِهَا إِلَى السَّيِّدِ وَكْفَيْلِدَ ، وَبَيَّنَ تِلْكَ الْوَدَائِعِ أَمْوَالُ لِعَمَّتِي .

فَارْتَدَّ أَوْرِيَا إِلَى الْوَرَاءِ وَكَانَهُ أُصِيبَ بِضَرْبَةٍ عَلَى رَأْسِهِ . غَيْرَ أَنَّ السَّيِّدَ مِيكُوبِرَ أَكْمَلَ
سِلْسِلَةَ أَتْهَامَاتِهِ قَائِلًا : « لَدَيَّ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هِيْبَ أَكْرَهَ السَّيِّدَ وَكْفَيْلِدَ عَلَى اتِّخَاذِهِ شَرِيكًا لَهُ
ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الْاِخْتِيَالِ عَلَيْهِ وَسَلَبِهِ أَمْوَالَهُ . لَقَدْ أَخَذْتُ دَفَاتِرَ الْمُحَاسَبَةِ الَّتِي يَحْفَظُهَا هِيْبُ
فِي الْخَزَنَةِ فِيهَا مَا يُثَبِّتُ أَقْوَالِي . وَالدَّفَاتِرُ الْآنَ فِي حَوْزَةِ صَدِيقِنَا الْكَرِيمِ السَّيِّدِ تَرَادُلُ . إِنَّ
هِيْبَ سَيَسْجَنُ مَا لَمْ يُوقَّعْ عَلَى وَثِيقَةٍ تُخَوِّلُ السَّيِّدَ تَرَادُلًا أَنْ يُصْبِحَ قِيَمًا عَلَى هَذِهِ
الْحِسَابَاتِ وَالْوَدَائِعِ وَالْأَمْوَالِ كُلِّهَا . »

وَلَمْ يَبْقَ أَمَامَ أَوْرِيَا هِيْبَ سِوَى أَنْ يُسَلَّمَ بِهَزِيمَتِهِ ، فَوَقَّعَ عَلَى الْوَثِيقَةِ وَانْسَحَبَ خَائِبًا

كَالْحَشْرَةِ الرَّاحِفَةِ مُلْمَلِمًا أَذْيَالَ حَقَارَتِهِ وَدَنَاءَتِهِ .

بَعْدَ ذَلِكَ تَرَكْنَا السَّيِّدَ وَكْفَيْلِدَ وَأَغْنِسَ فِي رِعَايَةِ تَرَادُلُ ، وَرَافَقْنَا السَّيِّدَ مِيكُوبِرَ إِلَى
مَنْزِلِهِ . وَعِنْدَمَا بَلَغَ بَيْتَهُ حَيًّا زَوْجَتُهُ مُتَوَدِّدًا : « يَا زَوْجَتِي الْغَالِيَّةَ ، لَقَدْ بَرَّأْتُ اسْمِي ! وَالْآنَ
يُمْكِنُنَا أَنْ نَحْمَلَ الْجُوعَ وَالْعُوزَ مَعَ رَاحَةِ الْبَالِ . إِلَّا أَنَّ حُبَّنَا سَيَسَانِدُنَا . »

وَتَدَخَّلَتْ عَمَّتِي بِطَرِيقَتِهَا الْمَعْهُودَةِ قَائِلَةً : « إِنِّي لَا تَسْأَلُ ، يَا سَيِّدُ مِيكُوبِرَ ، كَيْفَ
أَنَّكَ لَمْ تُفَكِّرْ بَعْدُ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى أَسْتْرَالِيَا ، فَقَدْ تَبَسَّيْتُ لَكَ الْحَيَاةَ هُنَاكَ . »

وَرَدَّ عَلَيْهَا السَّيِّدُ مِيكُوبِرَ قَائِلًا : « طَالَمَا فَكَّرْتُ فِي الْأَمْرِ يَا سَيِّدَتِي . لَكِنِّي أَوَاجُهُ
مُشْكِلَةٌ . » أَمَّا أَنَا فَكُنْتُ وَاثِقًا مِنْ أَنَّ فِكْرَةَ السَّفَرِ لَمْ تَخْطُرْ لَهُ بِيَالٍ مِنْ قَبْلُ .

وَسَأَلْتُهُ عَمَّتِي : « هَلْ تَعْنِي الْمَالُ ؟ وَلَكِنَّا نَوَدُّ أَنْ نُبَادِلَكَ الْمَعْرُوفَ الَّذِي أَدَيْتَهُ لَنَا ، بَعْدَ
أَنْ اسْتَرْجَعْتُ أَمْوَالِي بِفَضْلِكَ . »

أَوْكَلْنَا تَرَادُزَ الْقِيَامِ بِكُلِّ الْمُعَامَلَاتِ الْقَانُونِيَّةِ وَالْإِجْرَاءَاتِ الْمَالِيَّةِ. وَلَمَّا سَلَّمَ مَبْلَغًا مِنَ الْمَالِ لِلْسَيِّدِ مِيكُوبِر لِيُعِينَهُ عَلَى السَّفَرِ وَالْإِسْتِقْرَارِ فِي أَسْتْرَالِيَا، قَالَ: «إِنِّي أَنْصَحُكَ يَا سَيِّدُ مِيكُوبِر بِأَلَّا تَسْتَدِينَ أَبَدًا بَعْدَ الْآنَ!»

وَرَدَّدَ السَيِّدُ مِيكُوبِر: «لَنْ أَفْعَلَ أَبَدًا! بَلْ سَادُونَ هَذَا الْعَهْدَ عَلَى صَفْحَةِ حَيَاتِي الْجَدِيدَةِ، وَسَأَطْبَعُ فِي ذَهْنِ ابْنِي الشَّابِّ وَلِكَيْتَرَأَنَّ وَضَعَ يَدِهِ فِي النَّارِ أَفْضَلُ مِنْ مَدِّهَا لِأَحَدٍ أَوْلَيْكَ الدَّائِنِينَ الْمُرَابِينَ الَّذِينَ طَالَمَا أَفْسَدُوا حَيَاةَ وَالِدِهِ الْبَائِسِ.»

وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَجْرِي تِلْكَ الْأَحْدَاثُ الْبَالِغَةُ الْأَهْمِيَّةُ، كَانَ الْعَمُّ يِغُوتِي الْمِسْكِينُ يُوَاصِلُ الْبَحْثَ فِي كُلِّ مَكَانٍ عَنْ إِمِيلِي. حَتَّى إِنَّ الْإِشَاعَاتِ وَالْمَعْلُومَاتِ حَمَلَتْهُ عَلَى السَّفَرِ إِلَى فَرَنْسَا وَإِيطَالِيَا. وَبَعْدَ مُرُورِ سَتَيْنِ بَلَّغْنَا خَبْرَ يُفِيدُ أَنَّهَا فِي مَكَانٍ مَا فِي لَنْدُن. فَاقْتَفَيْتُ وَالسَيِّدُ يِغُوتِي أَثَرَ مُخْبِرِنَا الَّذِي دَلَّنَا عَلَى نُزُلٍ وَاسِعٍ وَضِعَ فِي حَيِّ حَقِيرٍ مِنْ أَحْيَاءِ الْمَدِينَةِ. صَعِدْنَا إِلَى الطَّابِقِ الْأَعْلَى، ثُمَّ دَفَعْنَا الْبَابَ فَوَجَدْنَا صَغِيرَتَنَا إِمِيلِي نَحِيفَةً تَعْبَةً بَائِسَةً، إِلَّا أَنَّ الْبَرِيقَ لَمْ يُفَارِقْ عَيْنَيْهَا. وَلَا تَسَلَّ عَنْ فَرْحَتِنَا وَدَهْشَتِنَا عِنْدَمَا عَثَرْنَا عَلَيْهَا أَخِيرًا!

رَاحَتْ تُحَدِّقُ إِلَيْنَا غَيْرَ مُصَدِّقَةٍ أَنِّي وَخَالَهَا وَاقِفَانِ أَمَامَهَا. وَصَرَخَتْ: «خَالِي! خَالِي!» ثُمَّ انْهَارَتْ وَسَقَطَتْ بَيْنَ ذِرَاعِي الْعَمِّ يِغُوتِي. وَرَاحَ يُشَبِّعُ نَظْرَهُ مِنْ وَجْهِهَا الشَّاحِبِ الْحَزِينِ ثُمَّ انْحَنَى عَلَيْهَا وَقَبَّلَهَا.

وَقَالَ بِصَوْتٍ يَكَادُ يَخْنُقُهُ الْبُكَاءُ: «إِنِّي أَشْكُرُ اللَّهَ يَا سَيِّدُ دِيْنِي، فَهِيَ قَدْ تَحَقَّقَ حُلْمِي أَخِيرًا.» وَحَمَلَهَا بِرِقَّةٍ وَحَنَانٍ إِلَى خَارِجِ التُّرُلِ.

وَتَحَقَّقْنَا، فِيمَا بَعْدَ مِنْ أَنَّ إِمِيلِي الصَّغِيرَةَ قَدْ طَافَتْ بِالْفِعْلِ فِي فَرَنْسَا وَإِيطَالِيَا، حَيْثُ كَادَتْ تَفْقِدُ رُشْدَهَا مِرَارًا، إِلَّا أَنَّ الْعِنَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ أَعَادَتْهَا فِي النَّهَايَةِ إِلَى مَنَزْلِهَا. وَأَحَاطَهَا بِخَالِهَا بِرِعَايَتِهِ حَتَّى اسْتَرْجَعَتْ عَافِيَتَهَا وَعَادَتْ السَّكِينَةَ إِلَى قَلْبِهَا.

بَعْدَ مُرُورِ بَضْعَةِ أَشْهُرٍ، أَعْلَنَ لَنَا السَيِّدُ يِغُوتِي قَرَارَهُ بِالْهُجْرَةِ إِلَى أَسْتْرَالِيَا، حَيْثُ كَانَ يَأْمُلُ أَنْ تَنْسَى إِمِيلِي الْمَاضِيَّ وَتَبْنِيَ حَيَاةً جَدِيدَةً. وَلَكِنَّهُ أَثَرَ أَنْ يَتْرَكَ هَامَ يَعْيشُ حَيَاتَهُ فِي



يَارْمُوثِ حَيْثُ ازْدَهَرَتْ أَعْمَالُهُ فِي صِنَاعَةِ الْمَرَاقِبِ.

انْتَقَلْتُ مَعَ السَيِّدِ يِغُوتِي إِلَى يَارْمُوثِ لِتَصْفِيَةِ أَعْمَالِهِ هُنَاكَ، وَقَضَيْنَا آخِرَ لَيْلَةٍ فِي بَيْتِهِ الْغَرِيبِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَفِي الصَّبَاحِ التَّالِي تَحَدَّثْتُ مَعَ هَامَ حَوْلَ مُسْتَقْبَلِهِ، وَكَانَ قَدْ عَلِمَ بِعُثُورِنَا عَلَى إِمِيلِي.

سَأَلَنِي هَامَ بِصَوْتٍ مُتَقَطِّعٍ: «هَلْ رَأَيْتَهَا يَا سَيِّدُ دِيْنِي؟» وَلَمَّا أَجَبْتُهُ بِالْإِيجَابِ قَالَ: «هَلَّا بَلَّغْتَهَا فَقَطْ أَنِّي أَطْلُبُ مِنْهَا الْعَفْوَ عَلَى مَا أَظْهَرْتُهُ لَهَا مِنْ الْإِلْحَاحِ مُزْعِجٍ فِي فَرَضِ عَوَاطِنِي عَلَيْهَا، وَأَنِّي مَا زِلْتُ أُحِبُّهَا.»

عُدْتُ إِلَى لُنْدُنَ مَعَ السَّيِّدِ يَغُوِي بَعْدَ أَنْ أَنْهَيْتُنَا عَمَلَنَا فِي يَارْمُوثَ . فَفَقَلْتُ رِسَالَةَ هَامِ النَّبِيلَةِ إِلَى إِمِيلِي الصَّغِيرَةِ . وَبَعْدَ مُرُورِ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ، أَرَانِي السَّيِّدَ يَغُوِي رِسَالَةً مِنْ إِمِيلِي إِلَى هَامِ ، عَلَيْهَا آثَارُ دُمُوعٍ ، وَالْحَقُّ عَلَيَّ فِي أَنْ أَتَوَلَّى أَمْرَهَا . فَعَزَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى يَارْمُوثَ فِي الْحَالِ لِتَسْلِيمِهَا إِلَى هَامِ بِيَدِي .

فِي الْيَوْمِ التَّالِيِ ، وَفِيمَا كَانَتِ الْعَرَبَةُ تَسِيرُ عَلَى الْخَطِّ السَّاحِلِيِّ ، لَاحَظْتُ مَا يُنْذِرُ بِدُنُوِّ عَاصِفَةٍ عَنيفَةٍ . فَقَبَّلْتُ أَنْ يَتَرَاءَى لَنَا الْبَحْرُ ، رَطَبْتُ شِفَاهُنَا رِذَاذُ مُشْبَعٍ بِالْمِلْحِ وَبَلَّلْنَا ، ثُمَّ لَاحَ لَنَا الْبَحْرُ وَقَدْ تَعَالَتْ أَمْوَاجُهُ وَتَعَاقَبَتْ فَخِلَتْ أَنَّهَا سَتَبْتَلِعُ الْمَدِينَةَ .

عِنْدَ السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ مِنْ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِيِ ، بَعْدَ لَيْلَةٍ مِنَ الْأَرْقِ تَعَالَتْ طَوَالِهَا أَصْوَاتُ نَاجِيَةٍ عَنْ سُقُوطِ أَنْبَابِ الْمَدَاخِنِ وَتَحَطُّمِ الْأَبْوَابِ وَالشَّبَابِيكِ ، وَصَلَتْ إِلَى مَسْمَعِي أَصْوَاتُ صَاحِبَةٍ : «سَفِينَةٌ تَغْرُقُ ! سَفِينَةٌ تَغْرُقُ ! أَسْرِعُوا» .

هُرَعْتُ إِلَى الشَّاطِئِ ، فَرَأَيْتُ السَّفِينَةَ ، وَقَدْ تَحَطَّمَتْ إِحْدَى صَوَارِيهَا ، وَتَشَابَكَتِ الْأَشْرَعَةُ وَالْحِبَالُ ، وَبَاتَتْ تَتَأَرَّجُحُ بِعُنْفٍ . حَاوَلَ بَعْضُ مَلَّاحِي السَّفِينَةَ قَطْعَ الْحِبَالِ بِالْفُؤُوسِ لِتَخْلُصَ مِنَ الْخُطَامِ ، لَكِنْ بِلَا جَدْوَى . وَإِذَا بِمَوْجَةٍ هَائِلَةٍ تَرْتَفِعُ فَوْقَ ظَهْرِ السَّفِينَةِ حَامِلَةً مَعَهَا إِلَى الْبَحْرِ الْمُهَاجِرِ رِجَالًا وَصَوَارِي وَبِرَامِيلَ وَالْوَحَا خَشِيَّةً .

عِنْدَمَا هَمَدَ الْبَحْرُ مُوقْتًا لَمْ يَبْقَ فِي الْمَرْكَبِ سِوَى رَجُلَيْنِ مَا لَبِثَ الْمِيَاهُ أَنْ جَرَفَتْ أَحَدَهُمَا ، أَمَّا الثَّانِي فَتَشَبَّثَ بِكُلِّ قُوَاهُ بِمَا تَبَقَّى مِنْ إِحْدَى الصَّوَارِي وَلَوَّحَ لَنَا بِطَرِيقَةٍ ذَكَرْتَنِي بِصَدِيقٍ كُنْتُ أُعِزُّهُ فِي الْمَاضِي . وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ رَأَيْتُ هَامَ يَشُقُّ طَرِيقَهُ وَسَطَ الْجُمْهُورِ ، ثُمَّ يَلْتَقِطُ حَبْلًا وَيَعْقِدُهُ حَوْلَ وَسْطِهِ مُسْلِمًا طَرَفَهُ الْآخَرَ إِلَى بَعْضِ الرِّجَالِ الْمُسْتَعِدِّينَ لِلْمُسَاعَدَةِ ، فَأَحْكَمُوا قَبْضَتَهُمْ عَلَيْهِ . وَخَاضَ هَامُ فِي الْمِيَاهِ النَّائِرَةِ وَاتَّجَهَ نَحْوَ السَّفِينَةِ ، وَسَرَّعَانَ مَا تَعَرَّضَ لِلْارْتِطَامِ بِالْمَرْكَبِ .



فَاضْطَرُّرْنَا إِلَى جَرِّهِ خَارِجَ الْمَاءِ ، وَقَدْ ظَهَرَتْ عَلَيْهِ بَعْضُ الْجُرُوحِ وَتَلَطَّخَ وَجْهُهُ
بِالدَّمَاءِ . وَلَكِنَّهُ مَا إِنَّ اسْتَرْجَعَ أَنْفَاسُهُ حَتَّى أَصَرَ عَلَى مُعَاوَدَةِ الْكَرَّةِ وَالْقِيَامِ بِمُحَاوَلَةِ إِنْقَاذِ
أُخْرَى . وَمَا لَيْتَ الْأَمْوَاجُ أَنْ قَذَفَتْ بِهِ يَمِينًا وَشِمَالًا حَتَّى غَابَ عَنْ أَنْظَارِنَا دَقَائِقَ . ثُمَّ
رَأَيْنَاهُ يَدْنُو مِنَ السَّفِينَةِ . عِنْدَئِذٍ ، ضَرَبَتْ جَانِبَ السَّفِينَةِ مَوْجَةٌ هَوَّجَاءُ وَقَعَتْ عَلَيْهَا
كَالْجِبِلِّ الْعَاقِي فَقَلَبَتْهَا رَأْسًا عَلَى عَقِبٍ وَدَفَّتْهَا تَحْتَ لُجَّةِ الْبَحْرِ . وَقَدْ ظَلَّتِ الْأَيْدِي
الْجَاهِدَةُ تَشُدُّ بِالْحَبْلِ لِتَسْحَبَ هَامَ الْمَسْكِينِ إِلَى الشَّاطِئِ حَتَّى أَلْقَتْهُ عِنْدَ قَدَمِي جُتَّةٍ
هَامِدَةً .

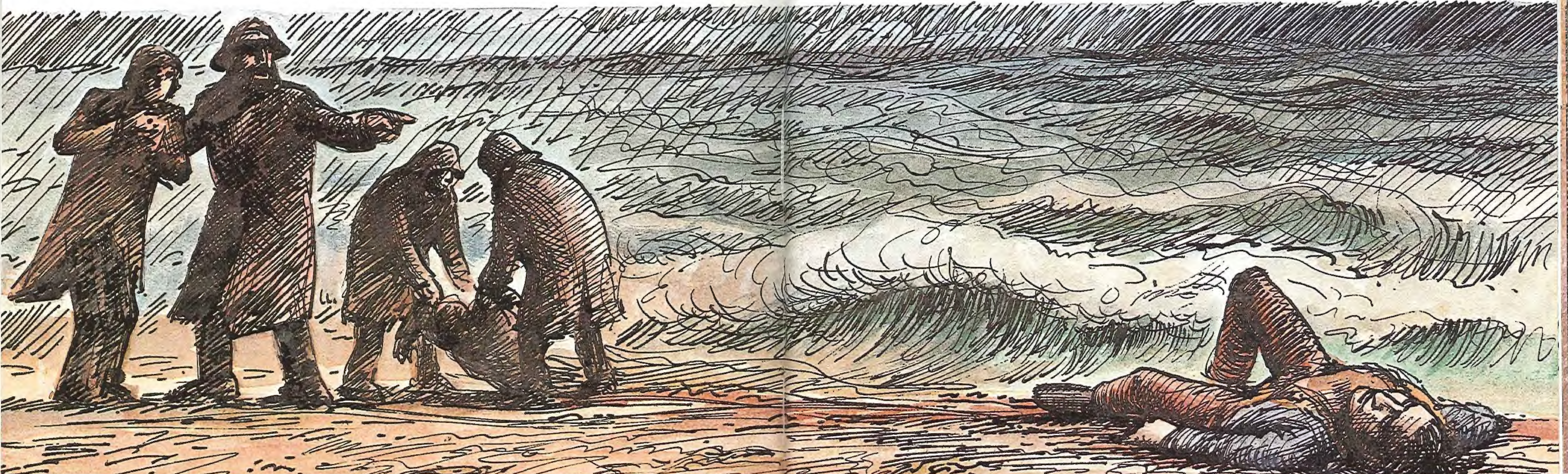
وَتَوَجَّهَ إِلَيَّ صَيَّادٌ كَانَ يَعْرِفُنِي مِنْذُ طُفُولَتِي ، أَيَّامَ كُنْتُ أَلْعَبُ عَلَى الرَّمَالِ مَعَ الصَّغِيرَةِ
إِمِيلِي ، وَصَاحَ : « يَا سَيِّدُ دَيْتِي ! هُنَاكَ جُتَّةٌ قَدْ لَفَظَهَا الْبَحْرُ عَلَى الشَّاطِئِ ! » وَأَشَارَ إِلَى
مَسَافَةٍ قَرِيبَةٍ . سَأَلْتُهُ : « هَلْ أَعْرِفُ هَذَا الرَّجُلَ ؟ » فَلَمْ يُجِبْ ، بَلْ قَادَنِي إِلَى حَيْثُ الْجُتَّةُ .
وَهُنَاكَ ، عَلَى الرَّمَالِ ، الَّتِي كَانَتْ مَلَاعِبَ طُفُولَتِنَا أَنَا وَإِمِيلِي ، وَجَدْتُ جُتَّةً سَتِيرُفُورَتْ وَقَدْ
كَادَتْ تَتَمَزَّقُ .

بَعْدَ رُجُوعِي إِلَى لَنْدُنَ كَانَ عَلَيَّ الذَّهَابُ إِلَى أَحْوَاضِ غْرِيتَشْ مَعَ الْعَمِّ يِغُوتِي

الْعَزِيزِ ، وَالْمَسْكِينَةِ إِمِيلِي الصَّغِيرَةِ اسْتِعْدَادًا لِلْسَّفَرِ إِلَى أَسْتْرَالِيَا . وَكَانَا سَيَّحْظِيَانِ فِي
سَفَرِهِمَا الطَّوِيلِ بِمُرَافَقَةِ السَّيِّدِ مِيكُوبَرِ وَمُسَاعَدَتِهِ . وَقَدْ أَظْهَرَ هَذَا الْأَخِيرُ ذَلِكَ النَّهَارَ
اهْتِمَامًا بِالْغَيْرِ وَمَرَحًا قَلَمًا أَلْفَتْهُمَا عِنْدَهُ .

اجْتَمَعْنَا فِي الثَّرْلِ الْوَضِيعِ حَيْثُ نَزَلَتْ أُسْرَةُ مِيكُوبَرِ فِي أَيَّامِهَا الْأَخِيرَةِ فِي إِنْكِلَتْرَا .
وَقَدْ أَظْهَرَ السَّيِّدُ مِيكُوبَرِ حُسْنَ ضِيَافَتِهِ الْمَعْهُودَةِ . فَحَضَرَ لَنَا مَزِيَجًا خَاصًّا مِنَ الشَّرَابِ
كَعَادَتِهِ . ثُمَّ حَانَتْ سَاعَةُ فِرَاقِنَا الْمُؤَلِمِ ، فَعَانَقْتُ السَّيِّدَ يِغُوتِي وَالذَّمُوعُ تَنَهَّمَرُ عَلَى
وَجْهَتِي - وَلَمْ أَقْوَرْ عَلَى الْكَلَامِ وَأَنَا أَضْمُّ إِمِيلِي الصَّغِيرَةَ ، مَحْبُوبَةَ طُفُولَتِي . وَوَدَّعَنِي ،
أَخِيرًا ، السَّيِّدُ مِيكُوبَرِ وَزَوْجَتُهُ وَدَاعَا مُوَثَّرًا بَعْدَ أَنْ أُنْعَقَدَ لِسَانُهُمَا . ثُمَّ انْتَقَلْنَا جَمِيعًا إِلَى
الرَّصِيفِ وَصَعِدَ الْمُسَافِرُونَ إِلَى مَتْنِ السَّفِينَةِ .

مَا لَيْتَ السَّفِينَةُ أَنْ انْطَلَقَتْ وَانْتَفَخَتْ أَشْرَعْتُهَا بِالْهَوَاءِ ، وَاتَّجَهَتْ عَبْرَ النَّهْرِ إِلَى
عُرْضِ الْبَحْرِ . وَصَدَرَتْ عَنْ ظَهْرِ السَّفِينَةِ هُتَافَاتُ الْوَدَاعِ ، فَكَادَ قَلْبِي يَغُوصُ فِي صَدْرِي
وَرَأَيْتُ إِمِيلِي بِجَانِبِ عَمِّهَا تَنْظُرُ إِلَيْنَا ، وَنَحْنُ عَلَى الرَّصِيفِ ، مُلَوِّحَةً يَدَيْهَا فِي وَدَاعٍ
أَخِيرٍ . فَانْهَارَتْ قُوَايَ وَلَمْ أَعُدْ أَتَحَمَّلُ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَنْفِعَالِ فَبَكَيْتُ بُكَاءً مَرِيرًا .



في الأسابيع التالية خيل إليَّ أنَّ أحبائي جميعهم قد هَجَرُونِي مِنْ غَيْرِ عَوْدَةٍ. فَبَعْدَ أَنْ تَوَقَّيْتُ عَزِيزَتِي دُورَا هَا قَدْ غَادَرَ هَذِهِ الشَّوْاطِيَّ أَحَبُّ أَصْدِقَائِي، مُنْذُ طُفُولَتِي، لِيَسْتَقِيلُوا إِلَى أَقْصَا الْأَرْضِ. وَلَكِنِّي أَدْرَكْتُ، فِي لَحْظَةٍ مِنَ الْوَعْيِ، أَنَّ فِي حُزْنِي شَيْئًا مِنَ التَّحَامُلِ وَالْأَنَانِيَّةِ. فَمَا زَالَتْ عَمَّتِي الْحَبِيبَةُ بِتَسِي بِجَانِبِي وَصَدِيقِي الْمُخْلِصُ تَرَادُلُزُ وَمُرَبِّيتِي الْوَفِيَّةُ الْعَجُوزُ يَغُوتِي وَخُصُوصًا مَلَكَ الْأَمِينِ أَغْنِسُ. وَمَعَ ذَلِكَ، عَمَدْتُ، لِإِزَاحَةِ الْكَاتِبَةِ الرَّاسِخَةِ فِي قَلْبِي، إِلَى السَّفَرِ خَارِجَ الْبِلَادِ، فَقَضَيْتُ ثَلَاثَ سَنَوَاتٍ مُتَنَقِّلًا بَيْنَ فَرَنْسَا وَإِيطَالِيَا وَسُويْسِرَا.

وَحَمَلْتَنِي وَحَدَّثَنِي عَلَى الْمُثَابَرَةِ عَلَى الْكِتَابَةِ، فَأَرْسَلْتُ رِوَايَتِي الثَّانِيَّةَ إِلَى تَرَادُلُزٍ فِي لَنْدُنْ كَيْ يَجِدَ لِي نَاشِرًا. وَبِالطَّعْنِ لَمْ يَخْذُلْنِي تَرَادُلُزُ. وَنَالَتْ الرِّوَايَةُ، فَوْرَ نَشْرِهَا، شُهْرَةً جَعَلْتَنِي فِي عِدَادِ الْمُؤَلِّفِينَ الشُّبَّانِ اللَّامِعِينَ.

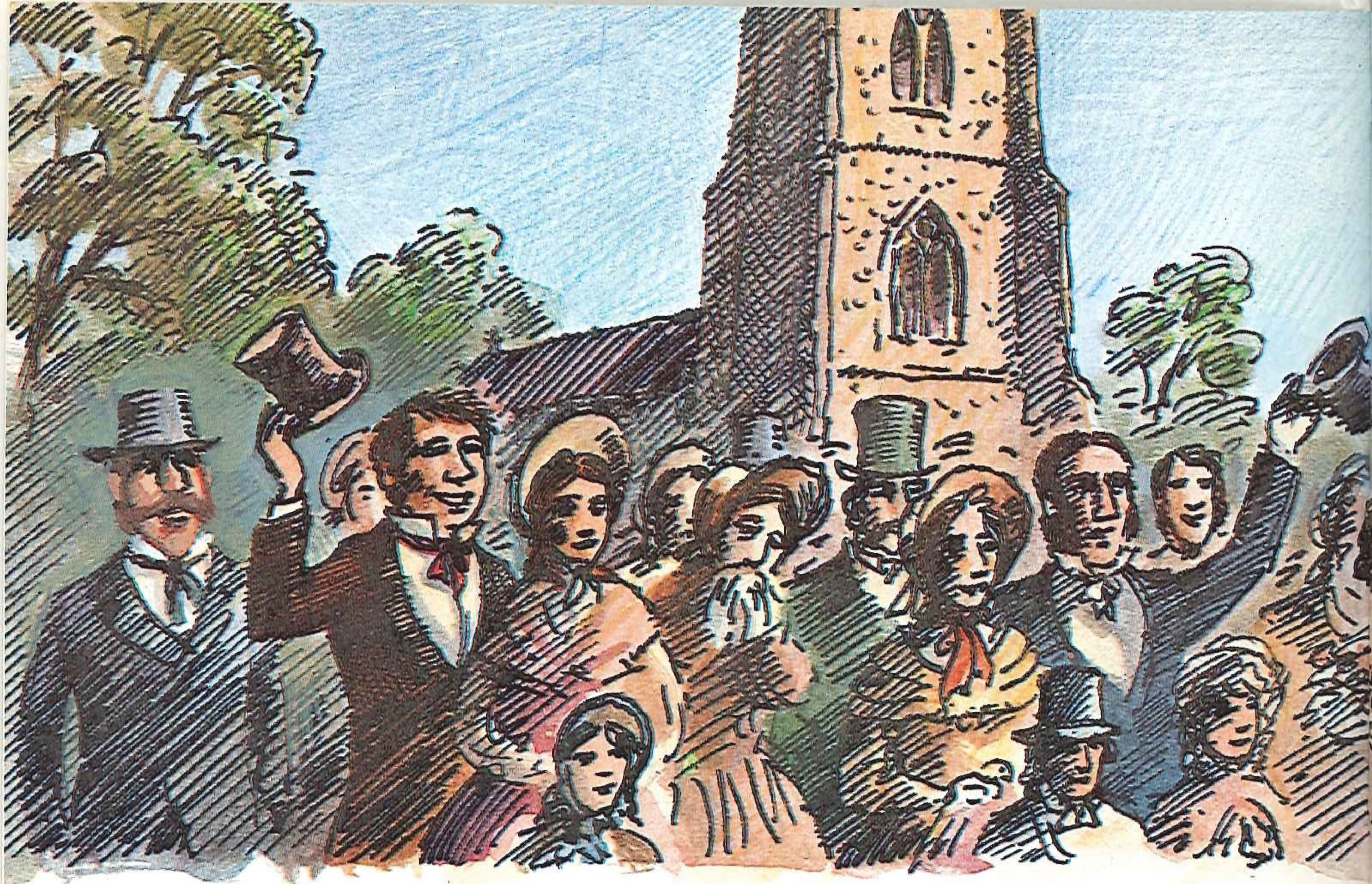
وَمَا بَرَحْتُ أَتَلَقَّى، خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ، عَدَدًا مِنَ الرِّسَائِلِ. وَوَصَلْتَنِي، ذَاتَ يَوْمٍ، رِسَالَةٌ مِنْ أَغْنِسُ. فَلَفَّتَنِي رِسَالَتُهَا إِلَى وَاقِعٍ كُنْتُ عَنْهُ كَالْغَافِلِ، وَهُوَ أَنَّ إِخْلَاصَهَا الثَّابِتَ وَشُعُورَهَا الْمُحِبَّ كَانَا سَدًّا دَائِمًا لِي فِي الْمِحْنِ وَالْمَصَاعِبِ. وَمِنْ خِلَالَ رِسَالَتِهَا، سَمِعْتُ نِدَاءَ الْوَطَنِ مِنْ جَدِيدٍ، فَعُدْتُ إِلَى لَنْدُنْ. ذَهَبْتُ، فَوْرَ وُصُولِي، إِلَى صَدِيقِي تَرَادُلُزُ، وَوَجَدْتُ أَنَّهُ قَدْ بَدَأَ يُبَرِّزُ فِي مِهْنَةِ الْمُحَامَاةِ. وَشَجَّعَنِي تَرَادُلُزُ عَلَى تَوْسِيعِ نِطاقِ نَشَاطِي فِي مَجَالِ الْكِتَابَةِ، وَسُرْعَانَ مَا أَصْبَحْتُ مِنَ الْأَدْبَاءِ الْمَشْهُورِينَ وَبَدَأْتُ أَتَمَتَّعُ بِالنَّجَاحِ عَنِ ذَلِكَ النَّجَاحِ. وَقَدْ سُرَرْتُ، بِصُورَةٍ خَاصَّةٍ، عِنْدَمَا عَلِمْتُ أَنَّ تَرَادُلُزَ قَدْ تَزَوَّجَ مِنْ فَتَاةٍ رَاضِيَةٍ. وَشَجَّعَنِي سَعَادَتُهُ الزَّوْجِيَّةُ مِنْ جِهَةٍ، وَوَضْعِي الْمَالِيُّ الْمُزْدَهَرُ مِنْ جِهَةٍ أُخْرَى، عَلَى أَنَّ أَنْظُرَ بِجِدِّيَّةٍ فِي مَشَارِيعِي وَتَطْلُعَاتِي الْمُسْتَقْبَلِيَّةِ. وَتَمَحَوَّرْتُ أَفْكَارِي حَوْلَ أَغْنِسُ بَعْدَ أَنْ أَتَقَنْتُ بِمَرَارَةٍ أَنَّ تَصَرُّفِي تِجَارَةً قَدْ اتَّصَفَ بِالْحِمَاقَةِ وَقَصَرَ النَّظَرِ.

كُنْتُ أَتَرَدَّدُ لِزِيَارَةِ عَمَّتِي وَعَزِيزَتِي يَغُوتِي الَّتِي كَانَتْ تَعِيشُ مَعَهَا. وَذَاتَ يَوْمٍ، سَأَلْتَنِي عَمَّتِي إِذَا مَا كُنْتُ سَأَذْهَبُ إِلَى كَانْتَرِبُورِي لِأَزُورَ السَّيِّدَ وَكْفِيلْدَ وَأَغْنِسُ. وَقَدْ ظَلْتُ عَلَى اتِّصَالٍ بِهِمَا أَثْنَاءَ سَفَرِي. فَسَأَلْتُهَا بِرَاءَةً: «هَلْ لِأَغْنِسُ حَبِيبٌ؟»

فَأَجَابَتْ مِنْ غَيْرِ تَرَدُّدٍ: «عِشْرُونَ وَاحِدًا! وَكُلُّهُمْ طَالِبُو زَوَاجٍ.»

وَسَأَلْتُهَا: «هَلْ بَيْنَهُمْ مَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِهَا؟»

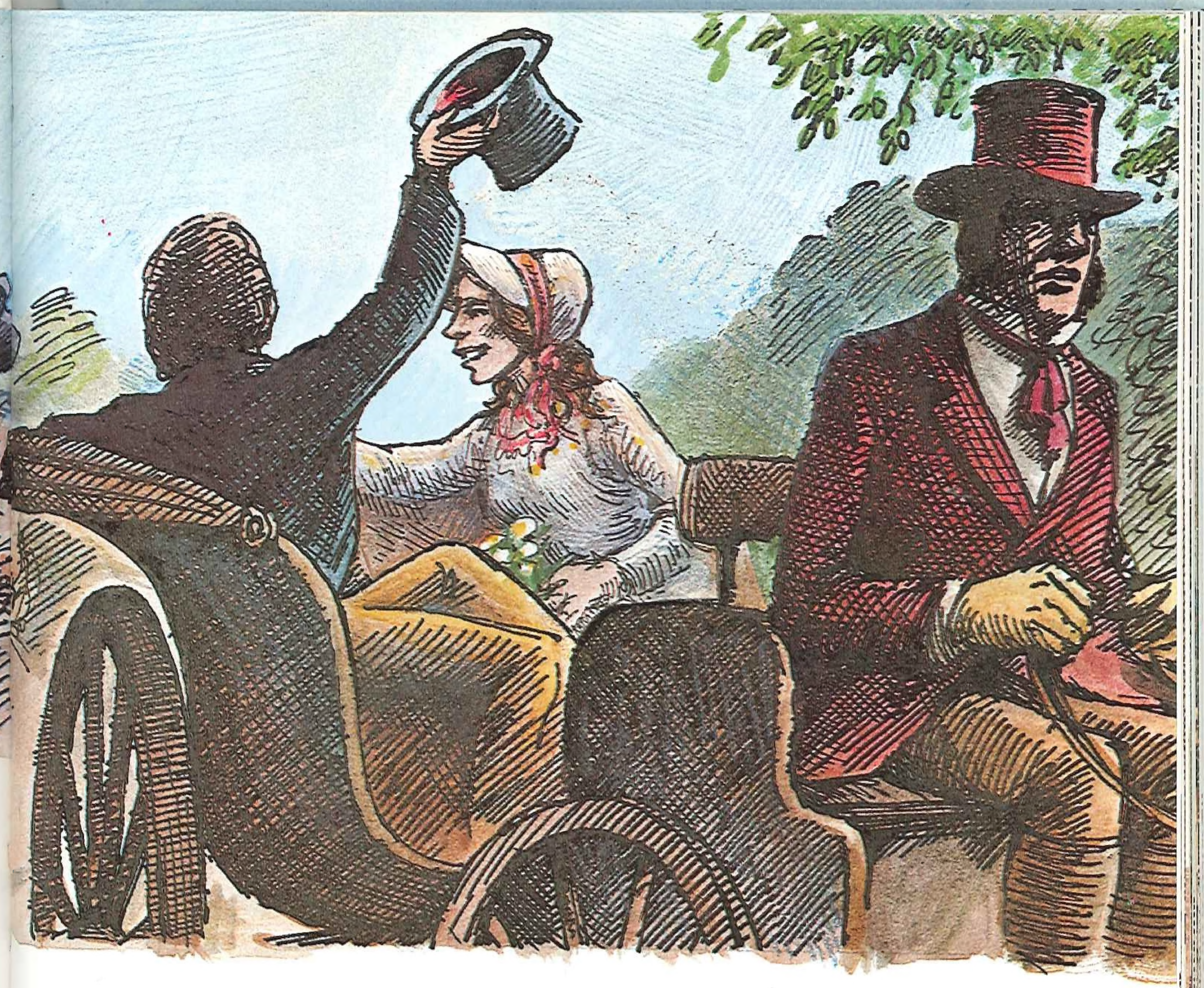
فَأَجَابَتْ عَمَّتِي بِأَسْلُوبٍ غَامِضٍ وَهِيَ تُمَعِّنُ النَّظَرَ إِلَيَّ: «إِنِّي أَشُكُّ فِي ذَلِكَ.»



تَرَوِّجُنَا فِي غُضُونِ أُسْبُوعَيْنِ ، وَكَانَ الْعُرْسُ بَسِيطًا وَهَادِئًا . فَبِالإِضَافَةِ إِلَى عَمَّتِي بِتْسِي
وَبِغُوتِي اللَّتَيْنِ تَوَلَّيْنَا أَمْرَ التَّرْتِيبَاتِ وَالتَّحْضِيرَاتِ ، حَضَرَ الْحَقْلَ تَرَادُلُ وَمُدِيرُ مَدْرَسَتِي
السَّابِقُ الدُّكْتُورُ سَتْرُونُغَ وَزَوْجَتَاهُمَا . وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ فَرَحٍ عَظِيمٍ بِالنَّسَبَةِ لَنَا كُلَّنَا .
وَفِي وَقْتٍ لَاحِقٍ ، بَعْدَ الظُّهْرِ ، انْفَصَلْنَا بِصُعُوبَةٍ عَنْ أَصْدِقَائِنَا الْأَعْزَاءِ لِنَذْهَبَ نَحْنُ
الْاِثْنَيْنِ ، فِي طَرِيقِنَا ، بَعْدَ أَنْ أَصْبَحْنَا زَوْجَيْنِ أَخِيرًا .

فِي الْمَسَاءِ ، تَحَدَّثْنَا بِإِسْهَابٍ عَنِ الْمَاضِي وَعَنِ الْمُسْتَقْبَلِ . قَالَتْ أَعْنِسُ : « هُنَاكَ شَيْءٌ
لَمْ أُخْبِرْكَ بِهِ بَعْدُ . فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي قَضَيْتُهَا مَعَ الْعَزِيزَةِ دُورَا وَهِيَ تُحْتَضِرُ ، وَجَّهْتُ إِلَيَّ
تَوْصِيَّتَهَا الْأَخِيرَةَ قَائِلَةً إِنَّنِي قَادِرَةٌ وَحْدِي عَلَى مَلْءِ الْفَرَاغِ الَّذِي كَانَتْ سَتَرُكُهُ فِي
قَلْبِكَ . وَهَذَا نَحْنُ الْآنَ قَدْ حَقَّقْنَا رَغْبَتَهَا الْأَخِيرَةَ . »

وَبَعْدَ أَنْ تَفَوَّهَتْ أَعْنِسُ بِهَذَا الْكَلَامِ أَلْقَتْ رَأْسَهَا عَلَى صَدْرِي وَبَكَتْ ، وَبَكَتْ
مَعَهَا ، فَاخْتَلَطَتْ دُمُوعُ الْحُزْنِ بِدُمُوعِ الْفَرَحِ ، لِأَنَّ كُنَّا سَبَقْنَا مَعًا مَدَى الْحَيَاةِ . فَقَدْ
تَرَوَّجْنَا أَخِيرًا وَكُنَّا أَسْعَدَ زَوْجَيْنِ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ .



ذَهَبْتُ ، فِي الْيَوْمِ التَّالِي ، إِلَى مَنْزِلِ آلِ وَكْفِيلْدَ فِي كَانْتَرِبُورِي ، حَيْثُ اجْتَمَعَتْ
بِعَزِيزَتِي أَعْنِسُ . وَمَا إِنْ رَأَتْنِي حَتَّى أَسْرَعَتْ لِتُرْحَبَ بِي وَوَجْهَهَا مُشْرِقٌ بِالْفَرَحِ ، فَتَلَقَّيْتُهَا
بَيْنَ ذِرَاعِيَّ وَصَرَخَتْ لَهَا بِصَوْتٍ خَافَتْ : « يَا عَزِيزَتِي أَعْنِسُ ، لَقَدْ عُدْتُ إِلَيْكَ أَخِيرًا » .
رَأَيْتُ وَجْهَهَا الْمُبَلَّلَ بِالْأُفْجَاءِ بِشِعْرِ بِنُورٍ مَلَانِيكِيٍّ ، فَلَمْ أَقْدِرْ عَلَى ضَبْطِ مَشَاعِرِي ،
وَقُلْتُ لَهَا مُتَلَعِّنًا : « يَا عَزِيزَتِي أَعْنِسُ ، تَعْلَمِينَ أَنِّي لَجَأْتُ إِلَيْكَ بِاسْتِمْرَارٍ طَلَبًا لِلْمُسَاعَدَةِ
أَوْ النَّصِيحَةِ ، حَتَّى إِنْ حُبِّي لِلْمَسْكِينَةِ دُورَا ، مَا كَانَ لِي كِتْمَلُ لَوْلَا تَفَهُّمُكَ وَعَطْفُكَ . لَقَدْ
رَحَلْتُ وَأَنَا أُحِبُّكَ ، وَمَكُنْتُ بَعِيدًا وَأَنَا أُحِبُّكَ ، وَعُدْتُ أَخِيرًا إِلَى الْوَطَنِ وَأَنَا لَا أَزَالُ
أُحِبُّكَ ! لَقَدْ أَدْرَكْتُ أَخِيرًا حَقِيقَةَ شُعُورِي ! » فَاجَابَتْ : « وَأَنَا أَيْضًا قَدْ أَحْبَبْتُكَ مُنْذُ
الْبَدَايَةِ ، وَلَا تَرَالُ حُبِّي الْوَحِيدَ . »

إِنَّ الْقِصَّةَ الَّتِي رَوَيْتُهَا هِيَ سَجِلٌ صَادِقٌ لِأَفْرَاحِ حَيَاتِي وَأَحْزَانِهَا. وَقَدْ تَوَجَّتْ حَيَاتِي بِالْمَكَانَةِ الْمَرْمُوقَةِ الَّتِي نَلْتُمُهَا فِي مِيدَانِ الْكِتَابَةِ. وَالْآنَ، بَعْدَ مُرُورِ عَشْرِ سَنَوَاتٍ أَرَى عَالَمِي الصَّغِيرَ يَزْدَادُ إِشْرَاقًا وَتَفْتُّحًا: فَقَدْ أَسَّسْتُ، مَعَ زَوْجَتِي الْحَبِيبَةِ، عَائِلَةً رَائِعَةً. وَمِنْ بَيْنِ أَوْلَادِنَا طِفْلَتُنَا الصَّغِيرَةُ بَتْسِي تروتود كويرفيلد الَّتِي تَكَادُ تَكُونُ صُورَةً مُصَغَّرَةً عَنِ الْعَمَّةِ بَتْسِي بِالذَّاتِ. وَقَدْ تَقَبَّلَتْ عَمَّتِي وَمُرَبِّيَّتِي الْوَقِيَّةُ يِغُوتِي تَقَدُّمَهُمَا فِي السَّنِّ بَرَزَانَةٍ وَطِيبَةٍ خَاطِرٍ، فَهُمَا تَلْمُسَانِ امْتِدَادًا لِشَبَابِهِمَا فِي الْأَوْلَادِ الَّذِينَ يُحِيطُونَ بِهِمَا أَثْنَاءَ زِيَارَاتِنَا لَهُمَا. وَأَصْبَحَ تَرَادُلُ رَجُلٍ قَانُونٍ نَاجِحًا، وَهُوَ سَعِيدٌ فِي زَوَاجِهِ، وَقَدْ رُزِقَ أَطْفَالًا يَزْخَرُونَ نَشَاطًا وَحَيَوِيَّةً. أَمَّا أَوْرِيَا هِيبَ فَقَدْ تَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ، بَعْدَ فَضِيحَتِهِ الْكُبْرَى ثُمَّ حُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ إِنْثَرِ اخْتِلَاسِهِ مَبْلَغًا طَائِلًا مِنْ بَنكِ إِنْكِلْتَرَا.

وَعَلَى صَعِيدٍ آخَرَ، كَانَتْ تَبْلُغُنَا مِنْ أَسْتْرَالِيَا، مِنْ حِينٍ لِآخَرَ، رَسَائِلُ تَنْقُلُ إِلَيْنَا أَخْبَارَ أَصْدِقَائِنَا الْمُقِيمِينَ فِي أَقَاصِي الْأَرْضِ. فَقَدْ حَالَفَ الْحِظُّ السَّيِّدَ مِيكُوبِرَ آخِرًا، فَازْدَهَرَتْ أَعْمَالُهُ التَّجَارِيَّةُ وَتَحَسَّنَتْ أَحْوَالُهُ الْمَادِّيَّةُ. أَمَّا الْعَمُّ يِغُوتِي فَلَمْ يَفْقِدْ نَشَاطَهُ بَلْ أَصْبَحَ رَجُلًا سَعِيدًا وَذَا شَأْنٍ. وَطَرَحَتْ إِمِيلِي أَحْزَانَهَا جَانِبًا، إِلَّا أَنَّهَا رَفَضَتْ كُلَّ عُرُوضِ طَالِبِي الزَّوْاجِ، لِأَنَّهَا حَقَّقَتْ سَعَادَتَهَا بِرِعَايَةِ الْمَرْضَى وَالْاهْتِمَامِ بِالْأَطْفَالِ فِي مَنَاطِقِهَا. غَيْرَ أَنَّنِي وَاثِقٌ مِنْ أَنَّهَا مَا زَالَتْ تَتَوَقَّعُ إِلَى تِلْكَ الْأَيَّامِ الْمُشْمِسَةِ فِي طُفُولَتِنَا الْبَرِيَّةِ السَّعِيدَةِ حِينَمَا كُنَّا نَلْعَبُ مَعًا عَلَى رِمَالِ يَارْمُوثِ قُرْبَ بَيْتِ الْعَمِّ يِغُوتِي.



تشارلز ديكنز (١٨١٢ - ١٨٧٠)

وُلِدَ تشارلز ديكنز بِالْقُرْبِ مِنْ مَدِينَةِ «بُورْتَسَاوْث» فِي جَنُوبِ إِنْكِلْتَرَا، وَعِنْدَمَا بَلَغَ عَامَهُ الثَّانِي أَنْتَقَلَتْ أُسْرَتُهُ إِلَى لُنْدُنِ حَيْثُ وَاصَلَ وَالِدُهُ عَمَلَهُ ككَاتِبِ حِسَابَاتٍ فِي الْقِطَاعِ الْبَحْرِيِّ. وَقَدْ وَاجَهَتِ الْأُسْرَةُ هُنَاكَ ظُرُوفًا عَصِيْبَةً لِسَجْنِ وَالِدِهِ بِسَبَبِ الدُّيُونِ. وَتَوَقَّفَ الطِّفْلُ عَنْ مُوَاصَلَةِ تَعْلُمِهِ، وَاضْطُرَّ لِلْعَمَلِ بِمُسْتَوْدَعٍ لِدِهَانِ الْأَحْذِيَةِ لِيُنْقِذَ عَائِلَتَهُ مِنَ الْمَوْتِ جُوعًا. وَعِنْدَمَا بَلَغَ تشارلز الصَّغِيرُ سِنَّ الثَّانِيَةِ عَشْرَةَ، أُطْلِقَ سَرَاحُ وَالِدِهِ مِنَ السَّجْنِ، وَاسْتَطَاعَ تشارلز أَنْ يَتَلَقَّى قَدْرًا مِنَ التَّعْلِيمِ خِلَالَ الْعَامَيْنِ التَّالِيَيْنِ. كَانَ ذَكِيًّا سَرِيعَ التَّحْصِيلِ، لَكِنَّهُ هَجَرَ الْمَدْرَسَةَ لِيَلْتَحِقَ بِوُضَيْفَةِ كَاتِبٍ بِمَكْتَبِ مُحَامٍ، حَيْثُ اكْتَسَبَ خِبْرَةً عَامَّةً بِأَسَالِيبِ الْمُحَامَاةِ وَشُؤُونِ التَّشْرِيعِ الْإِنْكِلِيزِيِّ، سَانِدْنُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ رِوَايَاتِهِ. خِلَالَ تِلْكَ الْفَتْرَةِ كَانَ دِيكْنِزُ يَعْمَلُ بِاجْتِهَادٍ حَتَّى اسْتَطَاعَ أَنْ يُصْبِحَ مُحَرِّرًا بِرْلَمَانِيًّا، وَهِيَ الْوُضَيْفَةُ الَّتِي احْتَرَفَهَا فِي وَقْتٍ وَجِيزٍ، وَالَّتِي سَمَحَتْ لَهُ أَنْ يَجُوبَ الْبِلَادَ شَمَالًا وَجَنُوبًا مُتَابِعًا لِحُطْبِ كِبَارِ السِّيَاسِيِّينَ.

كُلُّ هَذِهِ الْخِبَرَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا كَانَ يَتَّصِفُ بِهِ مِنْ دِقَّةِ الْمُلَاحَظَةِ، مَكَّنَتْ دِيكْنِزَ فِيمَا بَعْدُ مِنْ وَصْفِ النَّاسِ وَالْأَمَاكِنِ بِوَاقِعِيَّةٍ شَدِيدَةٍ. وَفِي عَامِ ١٨٣٦،

عِنْدَمَا بَلَغَ الرَّابِعَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ، نَشَرَ الْجُزْءَ الْأَوَّلَ مِنْ «مَذَكَّرَاتِ بِيكويك» الَّتِي حَقَّقَتْ نَجَاحًا سَرِيعًا. وَمُذْ ذَاكَ كَرَّسَ حَيَاتَهُ لِكِتَابَةِ أَعْمَالِهِ الرَّوَائِيَّةِ الشَّهِيرَةِ. وَخِلَالَ سِتِّ السَّنَوَاتِ التَّالِيَةِ كَتَبَ رِوَايَةَ «أُوليفر تويست» وَرِوَايَةَ «نِيكولاس نيكلباي» وَرِوَايَةَ «مُتَحَفِ الْعَجَائِبِ» وَ«بِرْنَابِي رُودَج». وَتَوَالَتْ بَعْدَ ذَلِكَ بَاقِي أَعْمَالِهِ «تَرْنِيمَةُ عِيدِ الْمِيلَادِ» وَ«دِيْقِيدُ كُوپِرْفِيلْد» وَ«بَلِيكُ هَاوَس» (الْبَيْتُ الْمُوَحِّشُ) وَ«أَوْقَاتُ عَصِيْبَةٍ» وَ«دُورِيْتُ الصَّغِيرَةِ». وَفِي عَامِ ١٨٥٩ أَتَمَّ رِوَايَاتِهِ «قِصَّةُ مَدِينَتَيْنِ» وَ«الْأَمَالُ الْعُظْمَى» وَ«صَدِيقُنَا الْمُشْتَرَكُ»، وَمَاتَ عَامَ ١٨٧٠.

تَمَتَّازُ رِوَايَاتُ تشارلز ديكنز، فَضْلًا عَنْ كَوْنِهَا مُمْتَنِعَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، بِأَنَّهَا ذَاتُ أبعادٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ وَأَخْلَاقِيَّةٍ؛ فَقَدْ كَانَ مُصْلِحًا اجْتِمَاعِيًّا مُحِبًّا لِخَيْرِ الْبَشَرِيَّةِ، وَفَوْقَ كُلِّ ذَلِكَ فَقَدْ كَشَفَ النُّقَابَ عَنْ مَسَاوِي الْفَقْرِ وَقَسْوَةِ قَانُونِ الْعُقُوبَاتِ وَنُظْمِ السَّجْنِ وَعَدَمِ رِعَايَةِ الْأَطْفَالِ وَعَجْزِ نِظَامِ التَّعْلِيمِ وَعَدَمِ كِفَائَتِهِ. وَاسْتَطَاعَ بِذَلِكَ أَنْ يُثِيرَ قَلَقَ الْأُمَّةِ، وَأَدَّتْ جُهُودُهُ إِلَى الْكَثِيرِ مِنَ التَّحَسُّنِ فِي حَيَاةِ الْكَثَرَةِ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَالْمُعْوزِينَ.

